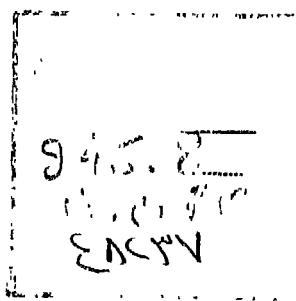


الشغر الأعمى على الأندلسى في عَصْرِ المَرَاطِين

وَسِقْطُ سُرْقَطَةٍ فِي النَّصَارَى سَنَةِ ١٤١٨ هـ / ١٩٩٥ م
مَعَ أَبْعَجْ وَثَائِقْ جَدِيدَة

تأليف
الدكتور حسين مؤنس



Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الثقافة الدينية



مَكْتَبَةُ التَّقَافَةِ الْيَهُودِيَّةِ

المركز الرئيسي: ٥٢٦ شارع بور سعيد الظاهر
تايفون: ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

”الشعر الأعلى“ الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للدكتور حسين مرنس

عثرت على الوثائق التي أنشرها في ذيل هذا البحث مصدر الوثائق في مخطوطين عربين دانى عليهما زميلي وصديق عبد العزيز الأهوازى في مكتبة «دير سان لورنزو» بالأسكوريا، يحمل أولهما رقم ٤٨٨ والثانى رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية. وراجعت ما كتب عنهم فى فهرس المخطوطات العربية الذى وضعه الراحل الأوليسي اللبناني «ميخائيل الفزيرى» بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

CASIRI: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*. Madrid,
1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذى وضعه «ديرنبورج» فلم أجده فيما إلا أن هذين المخطوطين يضمان نماذج من التأثر الفنى الأندلسى فى عهدى المرابطين والموحدين^(١).

وعندما أخذت فى دراسة هذه «النماذج» ، تبيّنت أنها تضم عدداً طيباً من «صور» وثائق هامة تتصل بتاريخ «المرابطين» و«الموحدين» فى الأندلس ، وتبيّنت بعد قليل أن المسادة التاريخية فى الكثير منها جيدة جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف إلى معلوماتنا طائفة طيبة

(١) راجع فهرس الفزيرى المشار إليه تحت رقم DXVI (ص ١٥١) ورقم XXXVII بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقى المذكورة أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغرييتين المجيدتين اللتين لأنجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس معرفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية تقدلاً صحيحاً أميناً ، لأننا نجد في صفحة ١٢٠ منخطوط الأول شهادة بصحة هذه الصور صادرة عن عالمين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيى ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدي المعروف بابن الشلوبين أو الشلوبي . ونص العبارة هو :

«قرأت أبعاض جميع ما تقييد فوق هذا ، ومنها ما أكلته ، وسمعت أبعاض ذلك ، ومنها ما أكل سماعيه على الشیخ الفقیہ الأستاذ أبي عیوب بن محمد ابن عمر بن عبد الله الأزدی الشمیر بابن الشلوپین ، رضی الله عنه ، وأجاز لی ما فاتني منها في روایته ، وناولتني السفر بكلیته ، وأباح لی ما في روایته منه ، وبالاستاد اليه فيه ، والله ینفعه بذلك » .

«قاله وكتبه عبد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى ابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ، وفقه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلياً على نبيه الكريم وعلى آله » .

«وذلك كله في عقب شهر ذي قعدة سنة ثلاثة وأربعين وستمائة » .

«المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدي في التاريخ » .
وما يدل على أن النسخة التي بين أيدينا هي التي راجعها «ابن الشلوبي»
بنفسه أن اسمه وارد في السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك في ذاته
أمر عظيم القيمة ^(١) .

ثم إننا سلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق
تأييداً تاماً .

(١) ظاهر من هذه العبارة أن خطوطنا أصلية وأن ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ .
 مما يزيد في قيمتها . وهي مكتوبة بخط مغربى غير القراءة فى مواضع كثيرة ، ولكنها
في حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب وثائق هذين المخطوطين ودراستها تمهيداً لنشرها ، ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت في الصفحات التالية أربع وثائق تتعلق ب موضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التي انتصر فيها المرابطون على جيوش القونس السادس صاحب ليون وقشتالة في شوال سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م و (الثاني) وقوع سرقة في أيدي ألفونس الأول ملك أرغون وقشتالة وليون في ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . واستفادة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البدعية ، فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لا بد من مقدمة تاريخية عن المرابطين في الأندلس وتاريخ « الفجر الأعلى » الأندلسي في عصرهم حتى تتضح الإشارات التاريخية الواردة في الوثائق ، وحتى يكون من الممكن الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتي كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث هي نماذج للنحو الأندلسي في صورة من أزيه صوره ، ولا غرابة في ذلك ، فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلصة وابن أبي الحصال يعيثون ذروة من ذري البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم في هذا الباب إلاقلائل في المشرق والمغرب .

* * *

يعتبر القرن السادس المجري (الثاني عشر الميلادي) المرابطون في الأندلس عصر اليقظة الأخيرة في تاريخ الأندلس الإسلامي ، عصر الصحوة الذي سبق عصور الاضمحلال المتصل التي تبدأ من أول القرن السابع المجري ، وهي صحوة قصيرة عنيفة سبقتها إرهادات أربأت عن عود الإسلام الأندلسي إلى النصر والعزّة بعد ذلك الانكash المستمر الذي عاناه طوال القرن الخامس المجري عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية .

ومن هذه الإرهادات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاقة » الذي أحرزته القوات المرابطية الأندلسية في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إذانا بتحول حاسم في عري تاریخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الفزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيراً مما فقده المسلمين خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الاسلامية من مجرى « الوادى الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تتوسّها وتحاول استعادتها ، وبدأ بوضوح أن جبهة الاسلام في « شرق الأندلس » لن تلبّي أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيد القميظور على بلنسية (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيو ١٠٩٤) ^(١) ويهدد نواحي سرقسطة ومرسية وبلاط الشرق كلها .

وعندما توفي يوسف بن تاشفين في أول الحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ترك لابنه على بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع يقوله : « وملك جميع بلاد القبائلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملك جميع بلاد الأندلس شرقاً وغرباً ، وملك الجزائر الشرقية وميرقة ومنورقة وبابسة ، وخُطب له على ألوى منبر ونيف وتلائمة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنّه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملكة قد توطد والأمور قد استقامت » ^(٢) .

وقد أساء « دوزي » الحكم على على بن يوسف كأساء الحكم على المرابطين عامّة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها المهوى أو ردها عبد الواحد المراكشي في « الموجب » ^(٣) وما زال يطح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لاعلم ولا أدب ولا رفاهية

(١) تحدد الروايات الاسلامية تواریخ مختلفة لسقوط هذا البلد ; ولكن تمديد ابن الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقاها : الحلة السیداء ، ص ١٨٩ ; وانظر مناقشة دوزي للتوازیخ : *Dozy, Recherches, II, pp. 1, X VIII*

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة نور نبرج ١٨٤٢) ص ١٠٢

(٣) راجع رأى عبد الواحد المراكشي في « الموجب في تلخيص أخبار المغرب » (طبعة القاهرة ١٩١٤) صفحات : ٩٦ ، ٩٥ ، ٧٧

ولا رخاء^(١) . مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسي الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بعطاقة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفي أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجد ، وابن القبطورنة ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون^(٢) ، ومراد بن أبي الحصال الذي يكاد يكون أعظم تأثير عرفة الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندي^(٣) ، ويكفي أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا التوليد بن رشد^(٤) ، وأبا العلاء بن زهر^(٥) ، كانوا من أصحاب علي وجلسائه وقد أشرف الثاني منها على تربية ابنه عميمو كأنه بالوصى عليه أثناء إقامته في قرطبة تائباً عن أبيه في حكم الأندلس^(٦) .

وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تصيبع منها آثار انتصار « الزلاقة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد في استنقاذها من آثار الفوضى التي شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير اللتواني الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حرى بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد ، فعمل على خلعهم عن إمارتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدي رجال من المرابطين^(٧) . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، واستثنى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

(١) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2^o éd.) p 155

(٢) الراكنى ، المجب ، ص ٩١

(٣) ابن الأبار ، الحلقة السيراء (طبعة دوزي) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحال المؤشية في ذكر الأخبار الراكنية ، مؤلف مجهول (طبعة علوش ١٩٣٦) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) الراكنى ، المجب ، ص ٧٥ ، والقرى ، نفح الطيب (طبعة أوروبا) ج ١ ص ٢٨٧ وانظر المناقشات الطويلة التي يوردها صاحب الحال المؤشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما يسدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة في المخطوط الذى أخذت منه الوثائق التى أشرنا لها هنا ، ص ١٧٤ من المخطوطة رقم ٤٨٩

(٧) القرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم^(١) بل يذهب ابن خلkan وابن خلدون إلى أنه كتب إلى فقهاء المشرق — وفي مقدمة their الفرزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتقهوا بضرورة تخلص الأندلس من أمرائها هؤلاء . ويفهمون من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف بن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طاماً فيها من أول الأمر^(٢) ، ولكن الفالب أذ فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبتت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيتهم وتقصيرهم في معاونة جيوشهم أثناء النضال مع النصارى ، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتأمر مع أمراء النصارى على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة^(٣) ، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحدر ، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بنى زيري أصحاب غرناطة ، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية . ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركاً قائده «سيير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما يديهم من البلاد والمحصون ، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور ، فلم ينته عام ٤٨٣ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود^(٤) ، وعاد ما بقي من الأندلس الإسلامي موحداً من جديد بيد الأمير المرابطي سير بن أبي بكر الذي اتخذ قرطبة مركزاً^(٥) ، وهكذا عاد هذا البلد إلى مرحلة الممتاز بين البلاد بعد أن فقد طوال عصر ملوك الطوائف .

(١) ابن خلدون ، العبر (طبعة يولاق) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) اقتبس : المراكشي ، المعجب ، من ٧٤

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ،
Dozy. *Musulmans d'Espagne* :
III، 139
وراجع التفصيل التي يوردتها ليلى بروفسال عن علاقات المعتمد بن عباد
مع القونس السادس ملك لியون وكتابه في مقال :

La "Mora Zaida" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, d^e : Hespéris XVIII, 1934, pp. 3-8.

(٤) المراكشي ، المعجب ، من ٧٥ وما يليها . وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلال الموسوية ، ص ٥٩

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذي وضعه يوسف بن تاشفين في حكومة الأندلس ، والمعلومات التي لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ، وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشؤون المدنية بيد الأندلسين كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع^(١) ، وكان النائب عن يوسف بن تاشفين في حكومة الأندلس فائد عسكري هو سير بن أبي بكر ، ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين^(٢) ، وكان التفاته كلها موجهاً إلى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل المتنونية ، وسيكون بعضهم من أمثال أبي عبد الله بن الحاج وأبي زكريا بن واسينو وجورج الحشمي ، وأبي عبد الله مندل شان عظيم في الحروب مع المغاربة في الأندلس ، ولم تكن القوة العسكرية التي وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ، فقد قدرها صاحب «الحلل الموسية» بسبعين ألف فارس «موزعة على أقطار معلومة» ، يكون منها إشبانية سبعة آلاف وبقرطية ألف فارس ، وفي المشرق أربعة آلاف فارس ، وباق العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة في الحصون المصادقة للعدو^(٣) وليس من المعقول أن تكون هذه هي عدة الجيش المرابطي المقيم في الأندلس ، لأننا نرى عشرات الآلاف من جنودهم في كل ناحية ، والمنطق أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجال . وقد كسب المرابطون برجالهم المنظمة القوية كل انتصاراً لهم الكبri في الأندلس^(٤) . ولستنا نفهم السر في أن يوسف اختص ناحية إشبانية بسبعين ألف مع أن الخطر عليها

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلل الموسية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ — ٦٩

(٢) الحلل الموسية ، من ٦٧

(٣) الحلل الموسية ، س ٦٥ ، وفي النسخ أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلاً : الروض المطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري (طبعة لبي بروفسال ، القاهرة) مادة زلاقـة ، وهو الأصل الذي أخذ عنه المقرى وعبد الواحد المراكشي . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة أقايـش في وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسياً ، أما الخطر الحقيق فكان على قرطبة وإقليمها ، أى ناحية الوسط ، ومع ذلك فُحصّتها من الخامسة لم تزد على ألف فارس ، وكان الشرق في ذلك الحين أكثر التواحي استهدافاً للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس فحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك في أنه كانت ترسل إليها عند اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلي من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن ناشين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبي جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فما الذي حدّاه إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفترق عن المعتمد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس في كثير؟ لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نلق نظرة على الحالة العامة في هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الإسلامية الذي كان يعرف « بالثغر الأعلى » .

الثغر الأعلى وسرقسطة عند ما انفطرت عقد الخلافة الأموية على رأس المائة في عمر المرابطين الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبي عاص يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيى ، وكان فارساً جلداً ذا خبرة ودرأة بأمور هذا الثغر المتطرف من بلاد المسلمين^(١) ، وكانت بيته وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات وثيقة وصولاً ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان في نفس الوقت سيداً متبوعاً للمكتريين من أشراف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضي والمحصون بهذه التواхи الجليلة الوعرة^(٢) ، فلما مات في سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيى بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سن أبيه ، وابعد بنفسه

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، الجزء الثالث (طبعة ليف بروفسال) من ١٧٥ - ١٧٦ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام (طبعة ليف بروفسال سنة ١٩٣٤) من ٢٢٦ - ٢٢٧ ، وانظر المربطة المرفقة لتعرف حدود الثغر الأعلى .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ، من ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذي ساد الأندلس كلها في تلك السنوات، فسلمت له بلاده، وأقام في دعوة لا يكاد ملوك أرغون يدبرون له شرا حتى مات سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م^(١)، وخلفه ابنه المنذر فأقام في الامارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٣٩ م^(٢)، فبدأ سلطان المسلمين في هذا الركن الفصي يتزعزع، وبدأت أطلاع أمراء أرغون وأكتناد برشلونة تتجه نحو سرقسطة وأقليمهما، وكانت هذه الأقاليم يضم حوض «إرثه» الأعلى كله، وفيه من المحسون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أبوب» و«درودقة» و«وشقة» «وبراشتر» و«مدينة سالم» و«لوجرونيو Logroño» و«صورية Soria» و«ترويل Teruel» و«إفراغة Fraga»^(٣) وكان بهذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً، وكان أهل هذا الأقاليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون في ظل هذه الأسرة في رخاء وأمن.

وكان من بين أتباع «بني يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع في أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليهنية، هي أسرة «بني هود» وكانت تملك مدینة «لاردة» و«تطليطة Tultepeque»، وكان يمثلها في ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود، فلم يكدر يسمح خلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثبت من حصنه ودخلها بأتواهه وحااز الأقاليم كله، وتلقب «بالمستعين بالله» على نحو ما كان يفعل معاصره من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)^(٤)، وأصبحت «دولة بني هود» في سرقسطة والشغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانا، واستطاعت أن تحول بين الإمارات النصرانية في هذا الركن الشمالي الشرقي وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث في «الموسطة» (إقليم طليطلة) و«الغرب» (إقليم بطليوس وماردة).

(١) انظر التفاصيل التي يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى مع جيرائهم من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ في :
Dozy : *Recherches*, I. pp. XXXIV sqq.

(٢) الحال المنشية ، ص ٦٠ وقد أكملت هذه المقدمة من كتاب :
PRIETO VIVES, *Los Reyes de Taifas* (Madrid, 1926), p. 46.

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام ،
ص ١٩٧

ولم يكن المطر النصراني على الأندلس الإسلامي من هذه بسو هود الناحية بعيداً ولا قليلاً في ذلك الحين ، فقد كانت حدود إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً، وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ الأندلس أمير قوي طامع في زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الذاهبة ، فكانت تصايبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هي : كونتيه « قططونية » يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بير شخير الثاني (١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) وملكة أرغون وكان يحكمها رامون الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٣ م) وكذا لايكف عن اجتياح حدود سرقسطة واتهاب ما يصل إليه من أرضها ، وبين هاتين الملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين هما باليارس (Pallars) وشر طانية (Cerdanya) وسيقف أصحابها إرمنجول الثالث (Ermengol III) ورامون (Ramon) إلى جوار قططونية وأرغون فيما يلى من الأحداث . أما في الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بمحدود مملكة نيرة (Navarra) وكان ملكها غرسية الثاني (Garcia II) (١٠٣٥ - ١٠٥٤ م) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون (Leon) أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدها خطراً على المسلمين في ذلك الحين ، وسيكون ملكها إذ ذاك فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥ م) وأولاده من بعده حصة الأسد في ترات الأندلس الإسلامي ، وكان من حسن حظ إمارة سرقسطة وببلاد شرق الأندلس كلها أذ كل جهود ملوك ليون ستتجه نحو إمارت بطليوس وطليطلة فترة طويلة من الزمان^(١) .

ومن ثم كاذ العب^{*} الملقب على أكتاف بي هود ثقيلاً لا يكاد ينهض به إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا يستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم الصغارى موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا ببلادهم من الشر الحقيق . بل سراهم يقفون موقف الحياة عند ما يستوى ألقونس السادس ملك ليون على مملكة طليطلة (سنة ٤٧٥ / ١٠٨٥ م)

(١) BALIBAR, J. 1998: *Historia de España*, 1992, II, pp. 295-301.

وسيقفون الى جانب «السيد القنبيطور» عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل.

وعند ما توفي أبو أيوب سليمان المستعين في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م استهدفت إمارة سرقسطة خطط جسم ، إذ تقاسم بلادها أبناءه الأربعة ، وجعل كل منهم ناحيته إمارة مستقلة ، فأنفرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بعاد الدولة المقترن بالله . واستقل أبو عمرو يوسف بلازدة وتلقب بعاد الدولة المظفر ، وأخذ محمد قلعة أبيوب وتلقب بعاصم الدولة ، أما الرابع ، المنذر ، فقد اكتفى بلقب الحاجب وفاز بـ *بُشطِيَّة* وتسميه المراجع لب^(١) . وهي كلمة أندلسية معربة عن «لوبو» (لوبو) الإسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحتربون فيما بينهم ، واستمرروا على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقترن بالله أن يستولى على ما كان يد أخيه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخيه يوسف حتى غلبه على بلاده في أواخر أيامه حوالي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة على يديه ، بل استطاع أن يضيف إليها أراضي جديدة اذتعها من جيرانه النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م) ودانية (سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٧٥ م) . وحاجز جزءاً من كورة طرطوشة (Tarragona) وأطرافاً من بنبلونة (Pamplona) ونواحي من لقنت (Alicante) وبلينسية وكانت أصحابها في حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم^(٢) .

وأحمد المقترن بالله هذا هو أقوى أمراء بنى هود وأوسعهم في تاريخ فترة الطوائف ذكرآ بعد المعتمد بن عباد ، وليس إلى الشك سبيل في أنه كان أقدرهم على مغالية شداد هذه الفترة القاسية ، وأمهرهم في النجاة ببلده وعرشه ، وأجرأهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

(١) ابن حيان برواية ابن عذاري ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخرج بريلو بيبيس هذه التواريف من النسخات ، راجع بمحنه القيم عن ملوك الطوائف : ١٧٠٠ - ١٧٠١ . pp. ٢٠٠ - ٢٠١ . *Premio Vives : Los Reinos de Taifas*

في أيامه درة الأندلس الإسلامي ، فقد ابْتَنى فيها « فصر الجعفرية » الباقي
إلى اليوم وقصر الذهب الذي قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفي أحد المقترن بين سنتي ٤٧٥ و٤٧٦ هـ / ١٠٨٢ و١٠٨٣ م فانقسمت
إمارة سرقسطة من جديد، واقتسمها ابناه يوسف والمنذر، فأما يوسف فقد تلقب
بال حاجب المؤمن؛ واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الإمارة كلها ، وانفرد
الثاني -- المنذر -- بطرطوشة ودانية والجزء الساحلي من الإمارة ،
وتلقب بال حاجب عماد الدولة ^(١) ، واستمرت الحرب بين الأخرين؛ ولم يخمد
أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤمن سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، فقد تهض
بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود، ومضى يحارب عمدة المنذر ،
وجعل كلها يستعين على خصميه بين استطاع الاستعانة به من ملوك النصارى .
وفي عهد يوسف هذا أقبل السيد القنطيطور إلى سرقسطة لاجئاً إلى أميرها
بعد أن نفاه الفونس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد
إلى جيوش يوسف المؤمن ومضى يحارب أعداءه، واستطاع أن ينزل بالكونت
رامون بير بغير الثاني صاحب قطلونية هزيمة فاسية عند « المغاربة » (Almenara)
وقد وقع الكونت في أسر ابن هود في هذه الموقعة ، وكان لها
أثر بعيد في تاريخ « السيد » وشرق الأندلس كلها بعد ذلك . وقد أقام السيد
في سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر
في نفسه وتكتيرته ^(٢) ، ويبدو أن لقب « السيد » الذي لُئِمَ به بعد ذلك
طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنَّه كان يقود جنداً من المسلمين ، فكانوا
ينادونه « بياسيدي » ، فلما عاد إلى خدمة الفونس السادس لزمته هذه التسمية ،
وصار جنده النصارى ينادونه بلفظي (mio) (id).

وفي هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطبع
في سرقسطة وببلادها ، ولو لا يقظة يوسف وأخيه وأهبيهما للدفاع
عن بلادها في كل لحظة لضاعت الإمارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

(٢) LEVI PROVENçAL , *Le Ciel de l'histoire dans l'Islam d'Occident* (Paris 1948) , pp. 170 sqq.

وقشتالة، ويكتفى أن نذكر حادثاً صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار : فقد كان أبو جعفر أَمْدَ — الذي تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه ، وأُودع أحد حصون روطة (Rueda). وأقام الرجل سجيناً في ذلك الحصن بعد وفاة أخيه، فلما كانت أيام ابني أخيه هذا — يوسف وأَمْدَ — فر من سجنه في أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م ، وذهب يختتم بالفونس السادس ملك قشتالة، ومات عنده بعد قليل ، فرغم ألفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبيه الذي تغلب عليه ، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمده رامير ونحور وطة، وقاد البديق في أيديهم ، لو لا أن يوسف المؤمن وحليفه القنبيطور وضعوا ألفونس ورجاله كينا في خافق ضيق على الطريق ، فلم يكادوا يتوقفونه حتى انهالت عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينج ألفونس نفسه إلا بصعوبة ^{١١} ، وأراد «السيّد» أن يرى نفسه من تهمة الاشتراك في هذه المؤامرة ، فرجع إلى ألفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته . وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة ألفونس وتطلعه لما في أيدي المسلمين ، ويدلنا على يقظة يوسف المؤمن وشدة حذره ، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب وموقع خسب ، بل كان كفاح مؤامرات وحيل ، ولو قد غفت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لا يطلعها ألفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م ، دون كبير مشقة .

وتوفي يوسف المؤمن في ذلك العام ، وصار الأمر في سرقسطة لابنه أَمْدَ على ما قلناه ، فتلقب بالمستعين ، وبضاعف الهمة في الحفاظ على ما يديه ، ذلك أن أطلاع ألفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيماجاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة . فعمل على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها ، واستعد أَمْدَ المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب «بلنسية» ، واستمر الحصار حيناً : وتحرج من كنز البلد ومن فيه ،

PRIMO VERS. *Los Reyes de Taifas.* p. 45.
R. MENÉNDEZ PIDAL : *La España del Cid* (1925). II. p. 551.

ولم ينقدر إلا نزول المرابطين الأندلس^(١) في ذلك الحين ، فرفع ألفونس الحصار وأسرع إلى بلده لتحقيرها . ثم كانت وقعة « الزلاقة *Sacrajas* » في رجب ٤٧٩ هـ / سبتمبر ١٠٨٦ م وانهزم ألفونس تلك المعركة الفاصلة التي أبعدت خطره عن البلاد الإسلامية الأندلسية كلها إلى حين^(٢) .

فإذا استقر يوسف بن تاشفين في الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضونه ويقدمون له المساعدات والألطاف ، كان أَحْمَدُ المستعين أَكْثَرُهم يقربا إليه . وعرف يوسف حرجاً من كُوز المستعين وصعوبة موقعه أمام ملوك النصارى ، وانعقدت بينهما أواصر صداقة سيكون لها أثر يزيد في مستقبل « سرقسطة » ، وحيثما ساءت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ليؤكد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولاءه وإخلاصه لقضية الإسلام في الجزيرة ، وليين له أنه بريء من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش المرابطين ، وكتب إليه كتاباً ، ورد عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وتفته من إخلاصه للمسلمين ، ويقول منه على بلاده ويعده بالمعونة^(٣) . ولا نزاع في أن يوسف بن تاشفين قد ترخطورة الدور الذي كان أَمْرَاه « سرقسطة » يقومون به في تلك الفترة الحافلة بالمخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحاصل بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين في شرق الأندلس^(٤) ، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصارى

(١) أخبار الثغر الأعلى في هذه الفترة موجزة إيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ، فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع التصرينية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة في ذلك الحين :

Primera Crónica General (éd. M. PIDAL, 1906) p. 538 à sqq.
Annales Toledanos Primeros (*España Sagrada*, XXIII, p. 385 sqq.
Historia Roderici apud : M. PIDAL : *España del Cid*. op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، *أعمال الأعلام* ، من ٢٠٠

Annales Complutenses en España Sagrada XXII. p. 314.

(٣) ورد من هذين الكتابين في سورتين لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا في الفاظ قليلة : ابن الخطيب ، *أعمال الأعلام* ، من ٢٠٠ — ٢٠١ ، *الحلل الروشية* ، من ٦٠

(٤) مكذا قال المستعين بن هود في كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نسخة منه وإنما وردت خلاصته فقط في المرجعين المشار إليها في المامن السابق .

وعلاقات الولاء التي كانت تربطهم بهم بين الحين والحين . لم يحالقو أحداً منهم على المسلمين ، ولم يقفوا من جيوش المرابطين موقف المساندة والتقاءعنى الذى وقفته إشبيلية بغرناطة وما لقاه الصراع العنيف الذى دار بينهم وبين النصارى على حصن « ليبيط Alpeda » بعد موقعة الزلاقة بقليل ^(١) .

وفي أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف اتّهز شانحة راميريز (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إماراة سرقسطة هبّوا عنيفاً وانتزع منها منشون (Monzon) سنة ٤٨١ أو ١٠٨٩ م ^{٥٤} ، ثم تقدم خاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فقضى ابنه « بدره » الأول يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها في ذي حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوڤمبر سنة ١٠٩٦ وقد دافع أحد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى ^(٢) ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcornaz) التي انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنت الصراع الذى كان متقدماً خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مداńن سرقسطة والثغر الأعلى ، قال : « وفي سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضيقوا بها ، وحشد المستعين جيواشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقي الفريكان ووقفت الحروب من لدن طلوع الشمس إلى غروبها حتى كادت تأتي على الفريكان . وترك ابن هود المصالف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، فرفع ما كان به من المال ثم كر إلى مقامه ، وأبلى إلى أن كانت المزيمة على المسلمين في آخريات ذى القعدة من العام . فقد من الناس ما ينهاز أثني عشر ألفاً ، والذين أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم المزيمة » ^(٣) وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بخليفة ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

(١) الحلال الموسوية ، من ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، من ١٩٩

BALLESTEROS : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، من ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى في ذلك الحين وهو غرسية أوردو نيد (Harcia Ordóñez) صاحب «نخرة Najera»^(١).

واستشهد أحد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حاسمة دارت بينه وبين أرغون أيضاً^(٢) وهي معركة فالتييرا (La tierra) (رجب ٥٠٣ / يناير ١١١٠)، وبوفاته فقدت سرقسطة آخر أمرائها التبار الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التي أحذقت بالأندلس الإسلامي كلها في ذلك الحين، ذلك أن ابنه الذي خلفه وهو عماد الدولة عبد الملك لم يكن من طرازه ولا من طراز جده المقدير، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر من اعتماد أبيه، ففُرِّت رعيته منه، وتخرج من كرمه داخل بلاده. ومسازاد في حرج من كرمه اقترب المرابطين من بلاده وميل أهل سرقسطة إلى الدخول في طاعتهم أملأ في أن يقوموا بحمايةهم من جيرائهم النصارى^(٣).

وقد استطردنا عن تبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إماراة على بن يوسف، واستقصينا أخبار سرقسطة حتى اقتراهم منها: فلما نعد الآن إليهم لنتتبع جهودهم حق نصل إلى تدخلهم الصريح في شؤون سرقسطة . قلنا إن على بن يوسف لم يكدر يستقر على عرش الدولة المغربية حتى عبر إلى الأندلس في نفس العام الذي تولى فيه (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م). وكانت ظروف الملك والامارات النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيماً خلال السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) : توفي ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد موقعة الزلاقة بعام واحد، وخلفه ابنته الدونيا أوراكا (Urraca)^(٤) فانحصر الخطر المستمر الذي كان يتهدد المسلمين من هذه الناحية، وتوفي كذلك السكونت هنري البرغوني (Enrique de Borgoña) صاحب كوتيبة البرتقال، الذي كان يهدد غرب الأندلس كله وخلفه ابنته الدونيا تيريزا (Teresa)^(٥)، ولم يهد الخطر ليتهدد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشمالية الشرقية حيث ظلت الحرب

(١) PIERRE VIVES: *Los Reyes de Taifas*, p. 49.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأسلام، ص ٢٠٢

P. VIVES, *Los Reyes de Taifas*, p. 49.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأسلام ، ص ٢٠٢

مستعرة يقودها أميران نصريان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالحرب » (Alfonso el Batallador) صاحب أرغون ورامون بيرنجر الثالث (Ramon Berenger III) صاحب قطلونية^(١) ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتذكروا الحبه الشالية الغربية التي شغلتهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قوام إلى شرق الأندلس الذي كانت الاخطار تهدده كارأينا .

أقام على بن يوسف أخيه « أمـا الطاهر تمـها » حاكماً للأندلس . وجعل مرکزه غرناطة^(٢) ، ولا يستطيع القول بأنه نقل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قربة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أولى للمرابطين ، لأن معظم أهلها كانوا من ببر إفريقيـة ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقيـة مصدر الأنداد .

وبحل « تمـ » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل موقة أقليش^(٣) أن يدخل أرضها وأن يقضى على الحامية النصرانية التي كانت تحـتل حصن أقليش (أو أقليـج Huelas) شرق طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسرفـطة تحـول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه

Francisco Codera : La Decadencia y Desaparición de los (١) Almorávides en España (Madrid 1899), p. 7.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، من ١٠٣

(٣) هذه الواقـة هي موضوع الوثـيقـة الأولى التي نشرـها هنا ، وهذه هي المراجـع غير العـرـيـة التي تـتـحدـث عنـها :

Cronicon de Burgos en Esp. Sagr. XXIII p. 310.

Annales Toledanos en Esp. Sagr. XIII. p. 327

CODERA : *Decadencia..., 10-11*

BALLESTEROS : *Hist. de Esp. II. pp. 232-233*

ولم يذكرـها من المراجـع العـرـيـة المنشـورة بالتفـصـيل إلا روض القرـطـاس : من ١٠٣ — ١٠٤ والوثـيقـة التي نـشرـها تعـطـينا عنها تـفـاصـيل دـافـيـة . وقد ذـكرـ عبدـالـلهـ الحـيريـ عنـ أقـليـشـ أنها قـاعـدةـ كـورـ شـتـبـرـيـةـ وـذـكرـ أنـ فيها جـامـعـ كـبـيرـ . (الروضـ المـطـارـ : من ٢٨) وهي الآن في مدـيـرـيـةـ قـونـقـاـ (Cuenca) وـتابـعـةـ لـرـكـنـ تـارـاتـكـونـ Tarancón

cf: LIKVI-PROVENÇAL *La Péninsule Ibérique au moyen-âge d'après Kitab ar-Rand al-miṣāḥ (Leiden 1938)* p. 35

الناحية؛ فحاصرها المرابطون، وكان ألفونسو السادس يلقي عليها أهمية كبرى، فأخذ الأهةة للمسير لدفاع المرابطين عنها، وكانت قد قبضوا على الكثير من جندها وأجاؤوا البقية إلى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه، فيكون مواجهها تيم، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانحة ابن ملك الروم، فسمع منها، فبعث ولده شانحة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم » كما يقول ابن أبي زرع؛ وكانت الوعرة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصارى ثلاثة وعشرون ألفاً، وتقرر الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصارى هلكوا فيها، وهذا يسمونها « موقعة الأكناذ السبعة (Batalla de los Siete Condes) »؛ وقد هلكت فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك، وأراد تميم ترك البلد للنصارى والانصراف عنه لولا أن قواد لتوية من المرابطين أصرروا على الاستمرار في القتال، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزوااما تاما (١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايول ١١٠٨)، وقد قتل في هذه المعركة « شانحة » بن ألفونس وولي عهده، وقد هاضت هذه الكارثة نفسه، فتوفي بهداه بنيف وعام (٣٠ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ هـ ٥٠٢ شوال).

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر، وأقبلوا في سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م، يقودهم على بن يوسف نفسه، ووجهتهم طليطلة، وإقليمها، فشنوا عليها غارات عنيفة، واسترجعوا من كبار مدائنه « مجريط » ووادي الحجارة (Guadalajara)، وحاصروا طليطلة شهراً دون أن يصلوا إلى نتيجة، وعادوا إلى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب في قوس أهل قشتالة وأمنوا خطورهم، فانتهز على بن يوسف فرصة المهدوء في هذه الجهة، وأرسل قائده الأمير « سيربن أبي بكر » في حملة عنيفة إلى غرب الأندلس استعادت مدائن شنترين (Santarén) وبطليوس (Badajoz) وبرتقال (Oporto) وبأبرة

(١) وقد ذكر ابن أبي زرع خطأ أنه توفي بعد المعركة بعشرين يوماً، روض القرطاس، ص ١٠٣

CODERA, *op. cit.*, p. 10, 239-242
BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II, p. 232-233

(Evora) وأشبونة (Lisboa) (١١٠٤ / ٥٠٤ م) ^(١)، وقد ولى المرابطون
الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا إلى نتيجة .
وكان من كثر الإسلام في شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد
أن استعاد المرابطون بلنسية من النصارى في سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت
هي وإقليمها تحت سلطان رودريجو دي بايز دى بيمار المعروف بالسيد القميظور
(El Cid Campeador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ / ٩٣٠ م - ٤٩٥ هـ ١١٠٢ م)
وقد استخلصها من أيدي رجال هذا المغافر القشتالي القائد المرابطي
أبو عبد الله محمد بن منذلي ، بعد كفاح طويل مير مع زوج السيد «شيانة»
(Chimena) وألقونس السادس ، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا
فيها النار ، وجعلوها كومة رماد ^(٢) ، ولكن عودتها قوماً من الجبهة الإسلامية
في شرق الأندلس ، وفتحت الطريق أمام المرابطين لتأمين سرقة سطة والغزو
الأعلى ، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالة .

وكانت أحوال «سرقة» تسير في ذلك الخين من سيء إلى أسوأ ،
وكان أهلها قد سكروا خلال المدة الماضية لساكن من همة أميرهم «المستعين»
واقتداره على مصانعة «السيد» و«التونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرهما .
وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع «السيد» وإيواءه إليه واستخدامه له
في حروبها ، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان «السيد»
ينزله بأهل بلنسية من الويلات ^(٣) ، ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

(١) ابن أبي زرع ، روض الفرطاس ، ص ١٠٥

(٢) لا ينسى القام هنا الكلام عن «السيد القميظور» وعلاقته بالساميين وفظانه
في بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التي كانت تحيط بحياة هذا التاريخ
الشتالي الذي جعله أشمار الملائكة أعظم رجال عصره ، ثم جاء متذذلاً
بعلم أعظم أبطال التاريخ الإسباني إطلاقاً في كتابه المعروف *La España del Cid*

وقد قرر فيه آراء تستدعي من جانبنا استدراكاً شاملًا .

(٣) راجع ما يقوله «ابن عذاري» في القطمة التي نشرها إيشي بروفسان من الجزء
الرابع من «البيان الغرب» في مجلة الأندلس :

LÉVI PROVENÇAL: *La Toma de Valencia por el Cid. Al-Andalus*,
Vol. XIII, 1948, fasc. 1 p. 123

لأنه كان بين المطرقة والسدان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس» عليه لضاعت سرقة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه في مرسية ، ولم يكن في استطاعتها الوصول إلى بلاده . فلما توفي السيد في سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود في الاستيلاء على شرق الأندلس كلها ، وحمايتها من أذى المغاربة من فرسان النصارى وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم في ذلك الحين إلى شرق الأندلس ، فأقام على بن يوسف أخيه أبو الطاهر تميمًا عاملاً على الأندلس ، وندب هذا أكبر قواده « محمد بن الحاج » قائداً لجيوشه في الشرق وجعل صر كزه مرسية ، وجعل معه ثفراً من أكبر قواد « ليونية » تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وأبا بكر إبراهيم بن نافلوت أو « تافلوبت » وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو في نواحي سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضي النصارى ، وكان أبو بكر إبراهيم ابن تافلوبت حاكماً مدنياً لمرسية وإقليمها^(١) .

وذلك المستعين بن هود — على ما روى — في سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيخ أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تتزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير « المرابطون » من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل إلى جيرانه النصارى ميلاً قوياً ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرعوا عليه « ألا يستخدم الروم ولا يلبسهم » فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس إلى المغاربة^(٢) . وكانت الجبهة النصرانية قد جدد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر في مصير الأندلس الإسلامي ، ذلك هو صاحب « ألفونسو الأول » الملقب « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، فقد كان فارساً جلداً متجدداً لهمة شديد الطمع فيها

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤

(٢) ابن الأبار ، الحلقة السابعة ، من ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان إلى نشاطه وذكائه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراكا Urraca » ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفي هنا انضمت ليون وقشتالة إلى أرغون ودخلت في طاعته كذلك إمارتا « جليلية » و« البرتغال » وكانتا تؤديان إليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطlovine في الشرق وببلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدره » الحمس المسيحي والرغبة في الاستيلاء على ما يied المسلمين من بلاد ، وكان « بدره » قد حوالَ الكفاح بين الإسلام والنصرانية في شبه الجزيرة إلى حرب صليبية ، لأنه « لما أسررت الحرب الصليبية عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثاني الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان النصارى الإسبان قد مُنعوا من اتفقة الصليبيين إلى بيت المقدس ، فقد رأى بدره ورعايه أن يشرروا الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها ضد (أعداء الدين) »^(١) . بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب في حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدن الشمال الشرقي ، وكانت تxae أمامة فريسة سهلة لا يكاد يعصيها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاة المستعين وقيام ابنه عبد الملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولم يُشغل ألفونس عن « سرقسطة » بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراكا وأنصارها ، لتقديم سقوط سرقسطة في يده بضع سنوات .

ولم يكن لميد الملك بن هود بد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف في المداراة والانكاش أمام ألفونس المحارب ، فخشى المرابطون أن ينتهي الأمر بضياع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائد محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصارى ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتحة ، ويجن عليهم

(١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (تمرير الامتداد محمد عبد الله عنان) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فانصرف عنهم ^(١)، وزادت مخاوف عبد الملك من ناحية المرابطين ، وعول على الاستنجاد بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شرطوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو محالتهم ، وبلغ الخبر محمدآ بن الحاج قائد المرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، وجعل عبد الملك بالاستعانة بالفونس ، فأسرع محمد بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبد الملك بن هود إلى الشهال واستقر بمحصن روطة (Ruebla) تحت حماية الفونس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك أنهى الدور الأول من تاريخ بن هود في سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر في نواحٍ أخرى من الأندلس في أواخر أيام الموحدين ، ويببدأ بذلك الدور الثاني من تاريخهم .

فلا يمكن الأمر للمرابطين في سرقسطة تجربوا لحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال ينجزهم ويتعدي على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج محمد بن الحاج في حملة قوية نحو برشلونة في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م . وصاحبها القائد محمد بن عائشة ، ومن الجيش في طريقه إلى برشلونة بمحصن ثيفيرا (Cervera) ^(٢) غرباً ، ثم وصل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد المرابطون في تخريب أراضيها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد لصانته ، وعادوا محليين بالمعنى الوافر ، ويدو أن النساء كانت كثيرة جداً ، لأن محمدآ بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الرومانى [؟]) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع ليلة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة ، فسار في مفاوز وعرة ومضائق مليئة بالمخاطر ، فانهز جند برشلونة الفرصة ، وكثروا له عند ضائق وعر قريب من محصن كونجست دل مارتو ريل (Congost del Martorrell) وهاجوه « فقاتهم قتال من أيقن بالموت ، وأغتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذأ »

^(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن أبي زرع في وصفه هذه الحلة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللقب تحريفاً من النسخ لاسم الحصن .

اقظر : C'ONERA : *Decadencia...* p. 21

وابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤
^(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

يخلص منه ، واستشهد رحمة الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتخلاص
منهم القائد محمد بن عائشة ففر بالخيلة إلى بلاد المسلمين »^(١) (٨/٥٥٠، ١١١٤)
وكان هذه الكارثة رجة كبرى في بلاد الأندلس ، وبعجل الأمير على بن يوسف
فأقام الأمير أبي بكر بن إبراهيم بن تاولوت المسوبي^(٢) حاكماً مرسية إلى ذلك
الحين ، حاكماً على شرق الأندلس ، وقد أصيب محمد بن عائشة في هذه المعركة
اصاباته لم يلتفت أن فقد نصره بسبعينها فيما بعد^(٣) .

وتتجدد أبو بكر إبراهيم بن تاولوت للحرب برشلونة للاختذال شار هذه المزية ،
فيجمع جنداً كثريين وسار بهم إلى بلنسية ثم إلى سرقسطة ، وجمع من نواحيها
من استطاع من الجندي ، وسار فنزل ببرشلونة وضيق عليها وأنزل بزارعها
خراباً شاملاً^(٤) .

وكان الأمير على بن يوسف قد عزل أخاه تميا عن ولية الأندلس واستبدل
به الأمير سير بن أبي بكر ، فأقام في الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧/١١١٣ م
فولى حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكماً إلى أن توفي
سنة ٥١٥/١١٥ م خلفه في هذا المنصب الكبير الأمير عبدالله من دلي ، وكان
من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيماً في حرب النصارى ، ولم ينصر جهوده
على إقليمي طليطلة وغرب الأندلس كما كان سابقه يفعلون ، بل اتجه بهمته
إلى الشقر الأعلى ، وكان الضغط الصراني قد اشتد عليه من كل ناحية :
كان السكونت رو드리جو نونيز Rodrigo Nuñez (يسمي ابن أبي زرع
«بني الزندغرسيين») صاحب «وادي الحجارة» قد سار إلى «مدينة سالم»
 وخسرها ، فسار إليه عبدالله من دلي واضطرب إلى الفرار تاركاً عسكره وأتقائه ،

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(٢) يرد اسم هذا القائد مادة دون نسبه ، وقد عثرت على نسبته تلك عند ابن خلدون :

العبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(٣) اختى ابن الأبار إبراهيم بن تاولوت مادة من مواد «المجم في أخبار أبي لي الصديقي» (ص ٥٥) ومنها نعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يمر بباب تيشت .
«يسمى ابن الأبار هذه الورقة «بوقبة البورت» .

(٤) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه إلى إقليم سرقسطة ليدفع عنه هجو ما عنيفاً قام به ألفونس الأول المحارب صاحب أرغون، واثقبك أبو عبد الله مندلي معه في قتال عنيف استشهد فيه سنة ١١١٥/٥٠٨ م^(١) ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء . وفي هذه الأثناء كانت الحرب بين أبي بكر بن تافلويت قائد المرابطين في سرقسطة وبين رامون ابن نمير صاحب برشلونة مستمرة على أشدتها ، وانكسر المرابطون كسرة شديدة في مهل برشلونة في أواخر سنة ١١١٥/٥٠٨ م . وبعد ذلك بستين توفي ابن تافلويت آخر كبار حمة شرق الأندلس من المرابطين^(٢) ، واشتد الضغط على سرقسطة وبذا بوضوح أذ مصيرها إلى النصارى (١١١٧/٥١٠ م).

وفي أوائل سنة ١١١٧/٥١١ م تخرج أمر المرابطين في شرق الأندلس بل في الأندلس عاماً بعد أن تحظف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ، وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر على بن تاشفين إلى الجلوس بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة في صفر من ذلك العام ، وأقام محمد ابن عبد الله مندلي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة وزوده بحشود من الجندي والمطوعة . وكان «ألفونس المحارب» قد أقبل يحاصر سرقسطة وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مندلي يدافعه عنها حتى ألجأه إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفي محمد بن مندلي ولم يتسع المجال أمام المرابطين لتوالية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد . فانهزم ألفونس القرصنة وأقبل يحاصر البلد من جديد (٣) (١١١٨/٥١٢ م) . وزاد طمع ألفونس حينها وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين . خاسر «لاردة» وكاد يستولي عليها ، فأرسل أهلها يستتجدونه بعلى بن يوسف فبعث أخيه تيماء وأقامه عاماً على شرق الأندلس ، فسار تيماء في جيش كبير

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، من ١٠٥

CODERA : Almorávides... p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاخطابة (مخطوط الاسكندرية) درجة ٩٨

(٣) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، من ١٠٥

CODERA : Almorávides. p. 250

وسار معه عمّه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وثبتوا لـ ألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده^(١) ومضوا يتبعونه في بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار في القتال ، لأن أمور المرابطين اضطررت في مراكش ، فانحدر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراكش ، وكان بهم بأمر مرسيّة على بن يوسف أخيه أبو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سرقسطة لرصف أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها ، وعاد إلى مرسيّة^(٢) ودخل الحو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « في أم كلثوم والجزاد ، وزلوا معه بها ، وشرعوا في فتحها ، وصنعوا أبراجاً من خشب تجري على بكرات ، وقربوه منها ، ونصبوا عليها عشرين منجنينا ، ووقع طبعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فتحت الأقوات وفي أكثر الناس جوعاً . فراسلوا ابن ردمير (ألفونس الأول المحارب) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فإن لم يأتمهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له ، ومهدهم على ذلك ، قتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسيّة وبلنسية . وذلك في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، وبعد دخولها وتمكّن النصارى إليها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرّع منها وملكتها العدو فنذر حكم الله فيها»^(٣) . هكذا سقطت سرقسطة قاعدة الإسلام الكبرى في شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطررت بسبب ظهور الموحدين واستدداد القتال بينهم وبين المرابطين في إفريقيا .

وعلى رغم المصاعب التي أحاطت على بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥٥١٣/١١١٩ م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصارى في كل ناحية ، وقد بذل على بن يوسف جهوداً وأقام أخاه تيماء حاكماً على الأندلس من جديد ، ففضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، من ١٠٦

(٢) ابن الخطيب ، اذْسَاطَة (مخطوط الاسكندرية) من ٩٨

(٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، من ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلحوذون في طلب النجات حتى استمع إليهم تهم وبعث إليهم قوة مرابطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج منهم حتى العلاء من أمثال أبي على الصدفي وأبي بكر بن العربي لم يترددوا في اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «قلعة أيبوب» ، فساروا نحوه . والنقوا معه عند بلدة (كتستندا) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة أذم فيها المسلمين هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بسبعينة ألف فيهم أبو على الصدفي ، ويؤكد المقرى أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وتجدهم . (ربيع الأول أو الثاني سنة ٥١٤ هـ / يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠ م)^{١١} . ويكتفى للدلالة على الصدى البعيد الذي كان لهذه المهزيمة في بلاد المسلمين أن نذكر أن علياً بن يوسف جاز إلى الأندلس بنفسه في العام التالي (٥١٥ هـ ١١٢١ م) لكي يأخذ بشار هذه المهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سرقسطة ، لأن الطريق إليها كان قد أغلق كذا ذكرنا ، فاكتفى بمحاذاة نواحي طليطلة والبرتغال وأتخن فيها واستولى على قلعة قلمرية Coimbra^{١٢} على شاطئ المحيط الأطلسي . ثم عاد إلى أفريقية بعد ذلك تاركاً أمور الأندلس لأخيه تميم وسوري أن تها سيخاول بعد ذلك الالتفات إلى سرقسطة لاستنقاذها: ولكن حاوته ستكون هزيلة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهزم أمامهم عند مكان يعرف بالقلعة أو القلاعة لم تستطع تحديد موقعه بالضبط (انظر مقدمة الوثيقة الثانية) .

١١ راجع عن معركة كستندا : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، من ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ من ١٤ — ابن إدبار : المجمع في أخبار أبي على الصدفي ، ص ٧ — المقرى ، فتح الطيب ، ج ٣ من ٧٥٩ (بيعة الـ هـرة) .

SAN JUAN DE LA PESA, *Cronicon*, p. 68.

ZULIXVA, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

Annales Compostelani Esp. SAU R. XXIII. p. 321.

١٢ ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، من ١٠٦
أشياخ ، تاريخ الأندلس من ١٥٣

و كانت هزيمة كستندة الفاسية تاتي بعيدة المدى في مصير «الغر الأعلى» الأندلسى كله ، إذ أن استيلاء «الفونس» على هذا الحصن المنيع المجاور «لدروقة» قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن «قلعة أبوب» المجاور له ; وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرة الأعلى ، ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تهدم لانتقاد سرقسطة ، وسترينا الونيف الثانية كيف أن المرابطين لم يحرروا بعد ذلك على مجرد الاقتراب من سرقسطة ، لأن «كنتنه» «و قلعة أبوب» كانتا في يد هذا الخارب الأرغونى الذى لا يكل ، وكان يفطاً لا تفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما استولى على معلم من معاقل المسلمين اتجهت به الهمة إلى الذى يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جدية قام بها المرابطون لاستناد سرقسطة ، ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين كانت تستند يوماً بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للحافظة على تلك الفتحمة العظيمة التي سقطت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركز قواته كلها للقوز بها طوال نيف وعشرين سنة . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت تقواهم بالمرابطين ، وعما قريب تبدأ الثورة عليهم في كل بلد أندلسى ، ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسيئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدرواها ، وسيقف المرابطون في الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمى الأندلس . فكيف كان يتاح لهم التفكير في استناد هذا العقل الإسلامى الذى ضاع إلى الأبد ؟ هكذا سقطت «سرقسطة البيضاء» درة «الغر الأعلى» وطليعة حصنون الإسلام في معركته الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عداء المرابطين وأضاعتها المصادفة السيئة ، مصادفة ظهور الموحدين في ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقة سرقة وشرف الأندلس : كم من جيش لم يهلك متأخرًا عن حومة الإسلام ، وكم من قائد لم يهلك في سبيل سرقة سرقة ولاردة ولنسية وغيرها من حصون الإسلام ! ولكن شيئاً من ذلك لم يُعْنِ ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درءه حيلة . أحن ؛ ولم يفقد هؤلاء الابطئون المهاهدون رغم ذلك كلَّه الأمل في استنقاذ ما يمكنهم إنقاذه من حواجز الإسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكُن تستحق لهم الفرصة حتى اتذرواها وأهانُوه الحظ هذه المرة : ففي شعبان سنة ٥٢٤ هـ يوليو ١١٣٠ م توفى محمد الدولة عبد الله بن هود أمير سرقة الذي ذكرنا كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه وجا إلى حصن « روطة » العقل الوحيد الذي بقى للإسلام من إمارة سرقة . وهناك أقام في حياته « ألفوتسو المغارب » صاحب أرغون ، وخلفه ابنه أبو جعفر أحمد سيف الدولة^(١) ، الذي أُتي بـ « ألفوتسو » حاله وإنضاؤه تحت لواء ملك نصراني -- إلا أن يتخد لنفسه لبماً خلافياً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ السياسي كلَّ من اتخذه من خلفاء الإسلام ! ويبدو أنه خاق بسلطان « الفونس المغارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه الفونس ريمونديز^(٢) Almoravids Ruyromondes ، ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية « المستلطيون »^(٣) ، وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملتهم التوالية على التغر الأعلى على طرطوشة ولاردة وآفراغة Almeria و مكناسة Mequines^(٤) ، ولم يستطعوا الاستيلاء على « روطة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها ملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا الإسلامية ، الواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأرضي المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع . وفيما بين سنتي ٥٢٦ و ٥٢٥ (١١٣١ و ١١٣٠) استطاع « ألفونس المغارب » أن يستولي على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل . ثم توجه بقواته نحو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٣

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) CODERA. Almoravides, p. 12-13.

«إفراغة» وكانت كثرة العقاب تشرف على نهر «أنجا» فخاصرها حصاراً شديداً، وأسرع لنجاتها أمير مرابطى من قبيلة «مسوفة» سيكون له أثر عظيم في تاريخ الأندلس خلال بحصار الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بن غانية أصحاب الجزار الشرقي، وكان يليل بالذسية ومرسيه اعلى بن يوسف، وسار لنجاتها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على «لاردة»، وانضم إلى فواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستسلام على «إفراغة» وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله، مما يدلنا على مقدار الحماس والتغافل الذي كان يعمر نفوس هؤلاء الأسبان في هذا الدور من صراعهم مع المسلمين . ويبلغ من رغبته في استئثار قومه أن أمر برفات القديسين فأدى بها إلى الميدان إذ كاه لروح الحماس الديني في قلوب الرجال ، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصنوف ، حتى التهبت نفوس جنوده حمية ، وأقبلت قوات المرابطين واشتبكت معهم مرتين لم توفق في كلتاها ، فوقع اليأس في قلوب أهل البلد واعولوا على التسلیم : ولكن ألفونس رفض وصمم على أن يفتح البلد بحد السيف .

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين : وأندفعوا يقاتلون قتال المستثن ، وذكر المرابطون على البلد مرة أخرى في عزمات قوية ، واستدرجو الجيش الأرغونى إلى كين وضعوه في الطريق ، ثم انقضوا عليه من كل ناحية ، وامتلكوا زمام المعركة ومنقووا الجيش الأرغونى شر ممزق ، وسقط من حماة النصارى وقادهم وأساقفهم في هذه المعركة ثغر كبير في مقدمتهم «ألفونس المحارب» نفسه ، سقط تحت سيف المرابطين^(١) في ختام هذا الصراع الرهيب الذى احتمد بينهم وبينه عشرات السنين (٢٣٥٢٨ / ١٢١٤ يوليه).

(١) راجع عن موقعة إفراغة : الضي : بنية الملحق . ج ١ ص ٩٥ ، ٤٠٦ — ان الأنير ، الكامل : ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب ، الاساطحة (مخطوط الاسكوريل) من ٢٨ — ابن عبد النعم الحميري ، الروض المطار ، من ٢٤ — ٢٥ — CRONICA DE ALFONSO VII en Espana Supradita . XXI pp. 339-379 — ODOERA . op. cit. pp. 267-272

أسباخ ، نفس المصدر ، من ١٤٢

هكذا فشل ملك أرغون في الاستيلاء على إفراغة ولاردة . وارتقت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم ، وبدوا كأنهم مبادرون إلى الاقتراب من سر قسطنة التي كانت قد أصبحت عاصمة أرغون ، ولكن الظروف لم تسعفهم ، ذلك أن لفظ عرض الجبهة النصرانية بملأ آخر لا يقل نشاطاً - لا رغبة في مغایلة المسلمين عن ألفونسو الحارب ، ذلك هو ألفونسو السابع عمالق فشالة وليون ابن الملكة أوراكا — التي ألمتنا بطرف من أخبارها -- من وجهاً ريمونديد البرغوني . كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . بعد أن توفيت أمـه الطموحة التي قضت في ميادين القتال معظم عمرها ^{١١} ، ومن غرائب المصادرات أن عام ولايته كان عام وفاة أبي الطاهر تميم الذي ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة ، خلا بعض فترات قصيرة . وبوفاته أخذ أمر المرابطين في الأندلس هو في سرعة .

وليس هذا مقام ذكر ماتلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية في الأندلس ، لأنهم سيظلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغزوـن بلادـهم دون أن يوقفـوا إلاـ إلى قليل ، لأن شئون دوـلـهم في إـفـرـيقـيةـ كانت قد اضطـرـبتـ اضـطـرـابـاـ زـائـداـ ، وـلـأنـ أـهـلـ الأـنـدـلـسـ المـسـلـمـينـ انـقـلـبـواـ عـلـيـهـمـ فيـ كـلـ نـاحـيـةـ ، وـقـامـواـ عـلـيـهـمـ يـقـتـلـونـهـمـ حـيـثـ وـجـدـوـهـمـ ، وـإـنـهـ أـمـرـمـ فيـ الأـنـدـلـسـ وـفـيـ الـغـرـبـ كـذـلـكـ نـهاـيـةـ مـحـزـنـةـ : أـبـادـهـ الـنـصـارـىـ وـالـأـنـدـلـسـيـوـنـ فيـ الأـنـدـلـسـ ، وـقـضـىـ عـلـىـ قـوـاتـهـمـ الـمـوـحـدـوـنـ فيـ الـمـغـرـبـ ، وـلـمـ يـبـقـ هـنـهـ إـلـاـ فـرعـ بـنـيـ غـانـيـةـ الـمـسـوـفـيـنـ الـذـيـنـ اـعـتـصـمـوـاـ بـالـجـزـائـرـ الشـرـقـيـةـ وـظـلـوـيـاـ يـنـاؤـونـ الـمـوـحـدـيـنـ حـتـىـ أـيـامـ الـنـاصـرـ الـمـوـحـدـيـ .

ويـهـمـنـاـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ أـنـ دـوـلـةـ الـإـسـلـامـ فـقـدـتـ سـرـقـسـطـةـ إـلـىـ الأـبـدـ ، وـسـنـرـىـ فـيـ الـوـئـيـقـةـ الـثـالـثـةـ أـنـ عـلـيـأـنـ يـوـسـفـ كـانـ مـهـمـوـمـاـ بـأـمـرـهـ يـفـكـرـ فـيـ اـسـتـعـادـتـهـ . وـلـكـنـ مـخـاـلـلـهـ كـلـهـ لـمـ تـسـفـهـ عـنـ شـيـءـ .

وـكـانـ الـفـوـنـسـ الـحـارـبـ قـدـ نـقـلـ عـاصـمـهـ مـلـيـةـ إـلـىـ سـرـقـسـطـةـ بـعـدـ اـسـتـيـلـانـهـ عـلـيـهـ مـبـاـشـرـةـ وـحـولـ مـسـجـدـهـ الـجـامـعـ إـلـىـ كـنـيـسـةـ . وـأـنـزلـ فـيـهـ أـعـدـادـاـ عـظـيـمةـ

من جنده وأهل أرغونة ، ومنهم حقوQAً وامتيازات ، وتمكن خلال السنوات الثلاث التي تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طر^{كونة} *Tarragona* عاصمة إسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة ، واستولى كذلك على « قلعة أليوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الشغر الأعلى » مثل وشقق وروحة ومكتنasse فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على أفراغه ⁽¹⁾ . وبهذا انتهى الشغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الإسلام في شرق الأندلس ملتبسة ومرسية ، وسكنوان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والإسلام في عصر الموحدين .

الوثائق

الوثيقة الأولى :

موقعه «أقليش» من الواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهي أحد الانتصارات الكبرى التي أحرزها هؤلاء الممتهنون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم في إفريقيا للذىاد عن مصير الإسلام في الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباح » في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » في تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن تعتبر انتصار المرابطين في أقليش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م (١٢ شوال سنة ٥٠١ هـ) ذروة سلطانهم في إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تتجذر قوتهم في إسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقيا والأندلس ; ويفدو سقوطهم في القريب أمراً محظوظاً » (ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردها في الفصل التاريخي السابق ، ولا نحتاج لجهد كبير لتبين أن هذه الوثيقة تضيف إلى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئاً كثيراً جداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقيية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي من بلدة « برجة » بالأندلس ، وكان من شعراء المقتضى بن صمادح صاحب المرية ، وقد أورد المقرى له في « النفح » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل في خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد النعم الحميري فصلاً لأقليش في « الروض المطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن في ثغر الأندلس ، وهي قاعدة كور شنبرية وهي محدثة ، بناها الفتح بن موسى بن ذي النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ثم اختار أقليش داراً وقراراً ، فبناها و McDonها ، وهي على نهر منبعث من عين غاليه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ما ، حمامها ، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش ، فان طول كل جائزة

من جوانز، مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهي مربعة متوجوة مستوية
الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أقليش ^(١) اليوم في مديرية قونقة ^(٢) (Conques) في ناحية Tarancón في إسبانيا كما ذكرنا .

c/. LEVE PROVENÇAL : *La Péninsule Ibérique.... p. 35 et n. 3*
وفد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة، للمركة التي نحن اصددها ولكن الوصف الذي تقدوه هذه المؤيصة دقيق يعطيها صوره واضحة جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتبع تطورها في تفصيل عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض
رؤسا ، الغرب ^(١) إلى أمير المسلمين ^(٢)
رحمة الله في فتح أقليش أعادها الله ^(٣) بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » ^(٤) ، عماد الأنام وعتاد
الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر وظاهرى على الدهر ،
الذى أجله بمحقه وأفر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة
مجدداً النفو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ،
وأعطى الفرج عن قسر ، فقلق عنه يد المسلط ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا في الأصل ، ويراد به « المغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس
يضاً في ذلك الحين .

(٢) علي بن يوسف بن تاشقش .

(٣) لم يتم فتح « أقليش » في هذه الحلة . إذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ،
نابغى ، وهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بن الشولات هو اللقب الرسمى لشمام ، لأمراء المرابطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير نعيم بن يوسف بن تاشقش حاكم الأندلس ولهذه
هذه الحلة .

والحمد لله الذي أسمى بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بيته الإسلام ،
وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكراهة فلوا الأذبار . والله تعالى يشفع
سعده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أذ وضعني أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آل التشريف
والعز المنيف . وألحتني من النعماه وأسجني أذيالها ، وصرف إلى
من عدده وبإله ما أولاني نعمة ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمـة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ؛ وأخذت في الاجتـهاد في الجـهـاد (ف ٤٥)
عـالـقـأـيـسـيـهـ ،ـ آـخـذـآـ بـمـذـهـبـهـ .ـ وـهـيـاتـ منـ مـاـلـهـ عـنـدـيـ جـيـشـهـ المـوـضـوـعـ يـيدـيـ ،ـ
وـأـجـبـتـ دـاعـيـ اللـهـ بـأـعـظـمـ نـيـةـ عـلـىـ أـكـرـمـ طـيـةـ ،ـ لـعـزـمـ بـيـمـنـ رـأـسـهـ وـعـلـىـ تـقـواـهـ
أـسـاسـهـ وـأـصـلـهـ .ـ وـسـرـتـ عـنـ حـاضـرـةـ أـغـرـ نـاطـةـ حـرـسـهـ اللـهـ فـيـ العـشـرـ الـأـخـرـ
مـنـ شـهـرـ رـمـضـانـ الـعـظـمـ (١)ـ بـجـيـشـ تـصـ صـوـاعـلـهـ وـتـقـمـ كـوـاهـلـهـ ،ـ رـايـاتـهـ خـافـقةـ
وـعـرـمـانـهـ صـادـقةـ ،ـ وـنـبـرـاتـهـ عـلـىـ أـلـسـنـةـ السـعـدـ نـاطـقـةـ .

ومـرـنـاـ مـنـ طـاعـةـ أـمـيـرـ الـمـسـلـمـينـ وـناـصـرـ الدـيـنـ عـلـىـ جـهـاتـ سـمعـتـ مـنـادـيـنـاـ ،ـ
وـتـبـعـتـ هـادـيـنـاـ .ـ وـاـنـقـادـتـ وـرـاءـنـاـ أـعـدـادـ وـأـمـدـادـ ،ـ بـرـزوـاـ مـنـ كـوـنـ ؛ـ وـتـحـرـ كـوـاـ
عـنـ سـكـونـ ،ـ وـأـنـخـنـاـ بـنـاحـيـةـ بـيـيـاسـةـ ،ـ وـقـدـ تـوـافـدـ الـجـمـعـ وـمـلـيـ الـبـصـرـ وـالـسـمعـ .ـ
وـأـخـذـتـ فـيـ الرـأـيـ اـخـمـرـهـ وـالـعـزـمـ أـصـمـرـهـ وـالـذـيـلـ أـثـمـرـهـ ،ـ وـجـدـدـتـ
الـاسـتـخـارـةـ اللـهـ تـعـالـيـ وـالـاسـتـجـارـةـ بـهـ ،ـ وـابـتـهـلـتـ إـلـيـهـ دـاعـيـاـ ضـارـعاـ ،ـ وـعـوـلـتـ
فـيـ كـلـ أـمـرـىـ عـلـىـ حـكـمـهـ خـاصـعـاـ مـتـواـضـعـاـ .

ولـقـنـاـ بـيـطـلـوـفـ بـلـادـ الدـوـرـ أـعـادـهـ اللـهـ ،ـ فـوـطـنـاـهـ مـنـ هـنـاكـ ،ـ وـقـدـ بـانـ
عـنـانـ الـأـهـيـقـ بـعـدـ بـنـيـانـ الرـتـبةـ ،ـ وـسـرـنـاـ بـجـيـشـ يـفـيـضـ فـيـضـاـ عـلـىـ أـرـضـ قـيـضـ
غـيـضاـ ،ـ وـلـسـيـولـ الـخـيلـ إـغـرـاقـ ،ـ وـلـبـرـوقـ الـبـوـاتـ إـشـرـاقـ ،ـ وـقـدـ نـطـقـتـ أـلـسـنـةـ
الـأـعـقـدـ بـعـدـ بـنـيـانـ قـلـعـاتـ (٢)ـ بـلـيـلـ ؛ـ وـلـمـ يـمـلـيـ بـعـدـ بـنـيـانـ قـلـعـاتـ
كـوـاـكـبـ الـأـسـنـةـ فـيـ عـتـامـ الـقـنـاتـ وـسـدـتـ

بنا الخيرة إلى المدينة المحسنة «أقيش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والسور المشيد ، بقدر السابق وشفع اللاحق .

و Gundonan يوم الأربعاء الأربع عشرة ليلة خلت من شوال، فدرنا بها دور الحلقة ببنقطتها ، وأكتملناها أكتاف الشيشة لبسطتها ، وذهب القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وحاموا ، حين رأموا ، وجئنا بكل صرب من الحرب ، نحسف عاليها وننسف هاويا . وبلازها بالرماح ، ونهزها هز الفصن في أيدي الرياح ، حتى فض اختيم وغض منه الإبهام ، وجعل الله بالنصر وفتحها بالقسر . وتفتح في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحققهم السيف محى الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هباء ، وبطحروا بطبع زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كل الوصييد ، وأخذتهم بفاتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، نفروا إلى الأذنان ، وسيفوا إلى الموت والأذعان ، فاكلنا ننزل حتى كيدنا ذلك المنزل ، وما أخنا حتى رضينا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فورنا ما أردنا .

ولما استحرر بهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغض ذلك المتجم ، **قصر الوقت البغتة وشغل الأخيد** (فهـ) عن المفلت ، وألهى الكبير عن قل ، ونام الجم الغير عن القل ، وعاذت ^(١) بقاياهم بقصبة المدينة فوجوهها كما يلتج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا المحاجب ، ونحن نصل الجد ونونحر ^[٢] [٣] لأنفسنا غرب ولأمك حرب ، نجحت الجرائم . ونختز الفلاصم ، ونخرب الديار وينتباها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتناحف بهدايا السبايا ، ونتكاشف عن بقايا الحبايا ، وننصرح ^(٤) بنيانا صدعته المخوف وغلبته السيف ، فلا طلاقه هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك اليمان ، وبدل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت

^(١) في الأصل «عادت» .

^(٢) كذا في الأصل من غير نقط يعقبه بيان بقدر كلة .

^(٣) في الأصل : ونتناحفوا ونتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها التاء مع نتيجة للإملاء ، وهذه الطاهرة تدل على أن أهل الأندلس كانوا يশتبهون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة فقهية (هي نيتينكية) جديرة باللاحفلة .

النواقيس عن يعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا متسلين لنا ،
فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكسفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الجلة
إلى الجلة ، فأوينا شاردهم ، وأقنا قاعدهم ، فانجبا بتكربيهم ، وعادت بعد البار
ومجاورة الكفار بشر دار ملتهم ، وأثار لهم الاسلام على منار الإيمان المبرد ،
واشتهر فيهم التوحيد اشتهر الحسام المبرد ، وكشف الدين عن مضره ،
وخطب الحق المبين على منبره .

وأقنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصغرار .
فبعد ذلك أرحتنا البوادر ، وغيبت تلك الدمام الهوامر (١٥٦) وغدا الخيس
في الخيس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يعبر أذیال الظفر في العدد الأول ،
يشفع الأولى بالتالي ، ويشتري العولى بالعلوى ، فأصبحنا في عز وأنس ،
وأصبحوا لازى إلا مساكنهم كأن لم يغنو بالأمس .

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن ، والمحصن
في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبع في الخاتم ، « والمحصور مأسور
وصاحب الحائط مقهور » (١) ، ولم تزل نوسعهم قتالاً ونوسعهم ضراًً ونكلاً
مسافة اليوم إلى أذ جزر النهار مدًّه ، وبث الليل جنته ، فعدنا إلى محلنا وقد أتمَّ
القالَّ أيُّه ، وغلبت الساهر حينه ، وكانت لم آل احتراساً للمحلة بطلاع تمرس
جهاتها وتدرأ آفاتها ، وفي التقدّر ما يسبق التذر ويفوت المذر ، ولكن
كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية (٢) زاده الله ذلاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،
وابعد في الاستقرار مظهاره ، وعباً جيشاً قد أسرى إلى ذمر (٣) ، وانطوى
على غمر ، فاقدم وصم ، وبئس ما تيم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

(١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الاندلسية .

(٢) يزيد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(٣) كلمة لم أستطع قراءتها والنسر زاد الأسد .

اذفونش^(١) وصاحب شوكتهم أَلْسِرْ هانس^(٢) والقمعط بِقِبْدُرَة^(٣) وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و«قلعة عبد السلام». وكل قاص ودان، (٦٩٥ ف) وماجل وأخزى الله جميعهم، وظل نجيعهم ولا أيام صر يعهم.

وهذا دعاء لوسكت كُفْيَتْه لأنني سألت الله ربِّي وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون المغارة، ويظهر ونصلنا تحت الغرة، وتقديموا فتندهم، ودنوا فهروا، ووصلوا فحصلوا. وأرسل الله تعالى من جنده فتي كلاوا قد سبوا حسبيرا واقنوه أسيرا، والله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده وبعثها جنده، وزرع^(٤) الفتى إلينا من معسكرهم متبعاً بهم دالا عليهم. وكاشفوا بهم عن النباء العظيم، ومستطلعوا منهم على المقد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا، ودارت على مر كثر التوفيق دائرتنا، وقام القاعد وأشار البنان والساعده، وتضامن الفريب والمبتاعده، والليل قد هدا ، والصبح

(١) الاشارة هنا إلى «سانشو» وحيد ألفونس السادس الذي قتل في هذه المعركة.

(٢) البر هانس هي الصيغة المرية للنارس القشتالي المعروف Alvar Haïns^(٥) ابن عم السيد القميبيطور وعدوه اللدود فيما بعد، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون في كل حربه، وقد اشتراك في جميع الواقع التي وقت بين ألفونس والرابطين، وقد كان من كبار فرسان قشتالة في معركة «أقيش» وانهزم مع من انهزم ، وخسر اقطاعيته في قرية توريتا Zorita حينما استولى الرا بطون على قوبقة Gueneca بعد انتصارهم في أقيش ، وقد أقامه الفونس بعد ذلك حاكماً لطليطلة ، فقام بالذماع عنها حينما حاصرها «الرابطون» في سنة ٥٠٢ / ١١٠٩ . وقد توفي سنة ١١١٤ على يد أهل سقوية Segovia في المروب التي استمرت بين الفونسو المقاتل صاحب أرغون والملكة «أوروكا» صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDREZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الاشارة هنا إلى الكونت «جاوريلا د كبرا» Gareja de Cabra مؤدب الأمير «سانشو» الذي قتل في المعركة .

cf: BALLESTEROS: *Hist. de España* II. p. 323.

(٤) لفظ «زرع» هنا مستعمل استهلا خاماً ، لأن «النماز» في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي يتدنس في جيش الأعداء أو يدخل منهم حمنهم متكرراً في ذيهم حتى يتعرف أخبارهم أو يتبين لهم ، ثم ينزع إلى قوهه ساعة الحاجة إليه أو بعد سقوط الحصن ، وكان في الأنظمة المرية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف «ديوان النماز» .

فَدَبْدَأَ . وَالْمَدِيَاجِيرُ مُمْدُودَةُ السِّرَادِقِ ، بِجَمِيعِهِ الْعَيْالِقِ ، وَلَا جَارٌ إِلَّا الفَاسِقُ^(١)
وَلَا مَارٌ إِلَّا السَّمَا وَالظَّارِقُ ، وَكَنْتُ قَدْ اسْتَدْفَتُ الْقَائِدِينَ الْمُجْرِبِينَ ذُوِي
الْتَّصْبِيْحَةِ وَالآرَاءِ الصَّحِيْحَةِ « أَبَا عَبْدِ اللَّهِ شَهَدَ بْنَ عَائِشَةَ » وَأَبَا شَهَدَ عَبْدَ اللَّهِ
ابْنَ فَاطِمَةَ^(٢) وَلَيَسَّىْ أَعْزَاهَا اللَّهُ . بِفَلَالِ فِي مَضَارِ وَسَاعِ وَاضْطِلَاعِ ، بِذَرَاعِ
وَذَرَاعِ ، فَاجْتَمَعَنَا عَلَىْ كَلَمَةِ اللَّهِ مُتَعَاقِدِينَ . وَخَضَعْنَا إِلَىْ حُكْمِهِ مُسْتَسِبِينَ .
فَعِنْدَ ذَلِكَ حَلَ يَدُهُ الْمُحْتَبِي ، وَقَوْلِ يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ، فَعَادَتِ الْآرَاءُ بِالرَّايَاتِ .
وَحَكِمَتِ الْمَهْىِ فِي النَّهَايَاتِ (١٥٧) وَالْأَسْنَةُ تَجُولُ^(٣) فِي آمَادَهَا ، وَالتَّصُولُ
تَصُولُ فِي أَغْمَادَهَا . وَتَرَنَا كَمَا نَارُ الشَّهَمِ بِفَرَصِّهِ ، وَطَارَ السَّهْمُ لِفَرْضِهِ^(٤) ،
وَأَمْرَتِ رِجَالًا بِلَازُومِ الْمَحَلَّةِ فَسَدُوا فَرْجَ أَبُو ابْرَاهِيمَ ، وَلَادُوا بِأَوْتَادِهَا وَأَسْبَابِهَا ،
فَدَارُوا بِهَا دُورَ السَّوَارِ ، وَانْتَظَمُوهَا اِنْتَظَامَ الْأَسْوَارِ ، قَدْ شَرَعُوا الْأَسْنَةَ
مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَأَجَلُوا الْبَوَاتِرَ فِي أَكْنَافِهَا وَأَضَاقُوا الْأَفْنِيَةَ ، وَقَارَبُوا بَيْنَ
الْأَخْبِيَّةِ . وَعَبَّانَا الْجَيْشُ يَهْنَاهُ وَيُسْرَاهُ ، وَصَدَرَهُ وَلَهَاهُ ، وَسَاقَهُ وَأَوْلَاهُ .
وَنَهَضْنَا بِجَمِيلَتِنَا مِنْ مَحْلَتِنَا ، وَالصَّبِرُ يَفْرَغُ عَلَيْنَا لَا مَدَدُ ، وَالنَّصْرُ يَلْعَنُ إِلَيْنَا
سَلَامَهُ ، وَتَوَجَّهُنَا إِلَى اللَّهِ نَتْقَنِ سَبِيلَهُ ، وَنَبْتَغِي دَلِيلَهُ ، ثُمَّا رَفَعَ الْفَجْرُ
مِنْ حَجَابِهِ ، وَلَا كَثَرَ الصَّبِحُ عَنْ نَابِهِ ، حَتَّى ارْتَهَتِ الْأُلْوَى الْدِينِ سَاهِيَّةُ
الْأَعْلَامِ ، وَانْسَعَتِ أَقْضِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ مَاضِيَّةُ الْأَحْكَامِ ، وَقَيَضَ اللَّيْلُ ثُمَّسُهُ ،
وَفَضَحَ الصَّبِحُ نَفْسَهُ ، وَلَسَنُ الْسَّنَانِ لَعَانُ ، وَلَشَابَ الْعَرَاكِ رَيْانُ ، وَلَا خَفَاقُ
الْأَعْلَامِ ضَرَابٌ أَوْ طَعَانٌ .

(١) أَى الدُّوَوِ .

(٢) لَمْ نَعْلَمْ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْوَثِيقَةِ أَنْ هَذِينِ الْقَائِدِينَ الْمَرَابِطِينَ الْكَبِيرِينَ حَضَرُوا هَذِهِ
الْمَرْكَدَةَ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : وَإِلَّا يَجُولُ .

(٤) فِي الْأَصْلِ مِنْ غَيْرِ نَقْطَةٍ ، وَقَدْ جَاءَ فِي اسْنَانِ الْمَرْبَبِ : « لَا وَفَرْمَةُ النَّمَاءِ ثُلَّتْهُ
الَّتِي مُنْهَا يَسْتَقِي ، وَفِي حَدِيثِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « جَئِتْ أَرْفَأْ بَهْ بَعْدَ فَرْمَةِ النَّمَاءِ أَيْ مُشَرَّعَةٌ ،
وَجَمِيعُ الْفَرْمَةِ فَرَسَ ، وَفِي حَدِيثِ أَبْنِ الزِّيْرِ : وَابْلُوْلُ الْسَّبُوفُ الْمَنَابِيَا فَرَمَنَا أَيْ أَجْمَلُوهُ
مَشَارِعُ الْمَنَابِيَا وَتَمَرَّنَا بِالشَّهَادَةِ » (ج ٩ ص ٧١) وَهَذَا قِرْأَتُهَا : فَرْمَةٌ .

وعند ذلك نجم « العجم » في سواد الليل وإزياد السيل ، يهظرون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، في دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى كاتما شجروا باللديد ، وسجعوا في الحديد ، يزحفون والجبن يعجلهم ، ويركبون [الموت] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالفوا أن لا يتخالفوا ، وتباعوا أن يتبايعوا ، ووصلوا إلى متدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا »^(١) مع جماعة ، فصدقهم العدو بتصدور نمرة وقلوب أشرة ، فانحوا بكلكل أورمو بمحنل ، وشدوا ثاردوا ، وقادروا فها صدوا ، وتقدّر القائد « أبو عبد الله » غير مولى وترابع غير محل إلى أن اشتد منا بطود ، وزخم من جيشنا يعوّد .

فتقى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكنا ولاجئين ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فـ^(٢) يناء ، وأتى الصبر فأشرق حميه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت النباتي مائبة ، وهدرت الشفاشق هائبة ، وجحظت العيون غضبا ، وطلبت البوار سبيا ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيف عن الأغماد ، وتساهلت الخيل وتطاولات القبولي ، فعند ذلك توافق القوم كوقنة الثغر ، بين الورد والصدر ، فيرز فارس من العرب^(٣) . فطلعن فارساً منهم فادراه من مر كبه ، ورماء بين يدي مو كبه ، فاتهنج ، ما ارتخ ، وانفتح المهم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الميل ، واعتنقت الفرسان ، واندق المحرسان^(٤) ود جاليل التقام ، وضاق مجال الجيش الهمام ، واختلطت الحسام بالأجسام ، والأرماح (٥٨) بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تُنْهَرْ يشكلاها ، وثارت ثأرة الطعن والضرب تفتّك يا بطالها ، فلثغر الصدور ابزداد ، ولجزم الفلوب

(١) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المراطي .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » في القتال في الأندلس في ذلك المصر ، والطالب أن تقرأ من العرب المسلمين ، الذين كانوا في المرب إذ ذاك ، عبر مع المراطين إلى الأندلس للاندراك في المرب مع الصارى ، وسيشتراك هؤلاء العرب في تلك المرب مشكلا ظاهر أيام الموحدين .

(٣) ياء في اللسان (ج ٨ ص ٢٨٧) خرchan : جمع خرس سنان الرع ، أو هو الرع نفسه

انتهاد ؟ فلأ وضَّحَ النَّهَارُ ، ولا مسخ الغبارُ ، حتى خضعت منهم الرقاب ،
 وقبلت رؤوسهم الزراب ، واتصل الملك بالشرك ، وما دلت الضالة إلى إيمانك ،
 وفُلِمَ ظفر الكفر ، وطالت أيام الإيمان ، وفر الصليب سليباً ، وعجم عود
 الإسلام فكان طيباً^(١) ، وغنمهم الختف فهمدوا ، وأطفافهم الختين فخدموا ،
 ومات جاههم بل كلامهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ،
 وكشفت المحبوات . واجملت تلك المحنات ، عن رسوم جسمون قد قصفتها
 البوار ، ووطئتها الحوافر ، خاصة المحدود عترة المجدود ، وأخذت ساقينا
 في الطلب وضم السلب إلى السلب . وملئت الأبدى بذيل وافق السكيل ، خيلا
 وبفالا وسلاماً ومالا ، ودرعوا أكلهم حملها ، وأنهلهم جملها ، فساعت
 ملبيساً وصارت مخيلاً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها .
 احتزناها نهياً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولا نكر ، وعطيته
 ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحجزت المدانة وزُهد في جمع
 النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردونش^(٢) والقوط
 (٥٨) وقود بلاط طليطلة ، وأكار منهم لم يكمل الآن البحث عنهم^(٣) ،
 وكانت كالمضب الجسم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون
 الله ويكررون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم
 ومسيديها ، ومعيد المتن ومهديها ، وصادرت^(٤) غالباً وأبت سالماً ، وبقي القائدان
 محاصرين لحسن أقليش آخرین بمحققهم ، مستولين على رقمهم .

^(١) كذلك في الأصل ، ولعلها « صليباً » .

^(٢) هو الكونت Garcia Ardonex قائد قتال آخر من كبار من قتلوا في هذه
 المعركة ، وكان من فرسان « سانشو الثانى » ملك ليون ثم أصبح من أتباع الفونس
 السادس صاحب ليون وكتالونيا ، وحارب مع السيد حيناً ونده حيناً ، واشتراك في معارك
 كثيرة منه المراطيين ، فسكن من المدافن عن حصن أليط Aledo . وانهزم أيامهم
 في هرقة « الـكـراـز » Alcoraz ، واندلـكـ في الهجوم على سرقـطةـ بعد ذلك ، ثم لـقـ
 حسرـهـ في هرقة « أـيـنـ » هذه .

: MUNIZ PINEAL: *La España del Cid*, index

^(٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في قد الموقعة مباشرة .

نخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل حبوره ، معلما بالأمر ،
مهنيا بالنصر ، للحمد لله عز وجل على ما وهب ، ونشكره على ماضى وسبب
والله يتكلف بالزيادة ويشفع القديم بالجديد ، وين من المثغر والتأييد ، فهو ولـى
الامتنان والملى بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبد سواه .

الوثيقة الثانية :

وأوضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة في يد
العون المقالـل بـسنوات ، وعند مقارتها باوثيقـتين التاليـتين يتضح أنهاـما
نتيـجة لهاـما ، ولـما كان تارـيخـهما هو سـنة ٥٢٣ / ١١٢٩ م . فـانا نـستـطبع
أن تـقرـر أنهاـما كـتـبـتـ في ذـلـكـ العـامـ نفسهـ . ولاـشكـ فيـ أنـ أـهـلـ سـرقـسطـةـ كـتـبـواـ
استـغـاثـاتـ كـثـيرـةـ مـثـلـ هـذـهـ ، وـلـكـنـ شـيـئـاـ مـنـهـاـ لمـ يـصـلـ إـلـيـناـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـانـ
قيـمـتهاـ التـارـيـخـيـةـ ، إـذـ أـنـهاـ صـوـتـ اـلـجـمـاعـةـ اـلـاسـلـامـيـةـ فيـ سـرقـسطـةـ بـعـدـ أـنـ صـارـتـ
فيـ أـيـدـيـ النـصـارـىـ بـسـنـوـاتـ . وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ إـسـرـافـ كـاتـبـ الرـسـالـةـ فيـ الـمحـسـنـاتـ
لـلـبـدـيـعـيـةـ وـتـضـيـيـعـهـ عـلـيـنـاـ بـذـلـكـ أـعـمـ مـاـ كـنـاـ فـتـنـتـظـرـهـ مـنـهـ ، وـهـوـ وـصـفـ حـالـ الـبـلـدـ
فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ وـصـفـاـ وـاقـيـاـ مـاـدـيـاـ ، كـمـ فعلـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـقـمـةـ عـنـدـ ماـ وـصـفـ لـنـاـ حـالـ
أـهـلـ بـلـاسـيـمـ فيـ يـدـ الـيـدـ الـفـيـبـيـطـورـ فـيـ كـتـابـهـ «ـالـبـيـانـ الـواـضـعـ عـنـ الـلـمـ الـفـادـحـ»ـ
بـالـرـغـمـ مـنـ ذـلـكـ لـمـ تـخـلـ الرـسـالـةـ مـنـ إـشـارـاتـ عـلـىـ أـعـظـمـ جـانـبـ مـنـ الـأـنـهـيـةـ ،
وـهـيـ عـلـاـوةـ عـلـىـ ذـلـكـ تـصـوـرـ لـنـاـ حـالـ الـيـأسـ الشـامـلـ الـذـيـ وـقـعـ فـيـ أـهـلـ هـذـاـ الـبـلـدـ
بـعـدـ أـنـ اـنـتـطـعـتـ الـصـلـةـ تـهـاماـ بـنـهـمـ وـبـيـنـ إـخـرـانـهـ الـمـسـلـيـنـ فـيـ كـلـ نـاحـيـةـ ،
وـلـمـذـاـ كـلـهـ فـهـىـ جـديـرـ بـالـدـرـاسـةـ ، وـقـيـمـتهاـ التـارـيـخـيـةـ عـظـيـمةـ ، أـمـاـ قـيـمـتهاـ كـنـصـ
أـدـبـيـ فـلـاـ تـحـتـاجـ إـلـيـ بـيـانـ .

وـقـدـ حـارـلـتـ أـنـ أـنـعـرـ فـيـ شـخـصـيـةـ ثـابـتـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ كـاتـبـ هـذـهـ الرـسـالـةـ ،
فـلـمـ أـجـدـ لـهـ ذـكـراـ فـيـ مـرـاجـعـنـ الـأـنـدـلـسـيـةـ ، وـهـذاـ هـوـ الـمـتـنـتـظـرـ ، لـأـنـهـ كـانـ مـنـ
هـذـهـ اـلـجـمـاعـةـ اـلـاسـلـامـيـةـ السـرـقـسطـيـةـ الـتـيـ قـدـرـهـاـ أـنـ تـنـصـلـ عـنـ الـعـالـمـ اـلـاسـلـامـيـ
أـنـفـصـالـاـ تـاماـ ، وـتـنـخـنـقـ فـيـ الطـامـ الـنـصـرـانـيـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ .

رسالة *

كتب بها قاضى سرقسطة والجمهور فيها الى
الأمير أبى الطاھر تيم بن يوسف بن تاشفين^(١)
حين حاصرها ابن رذ دمير^(٢) واستقليها^(٣) أعادها الله

من هاتزى طاعة سلطانه ومستعدجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله^(٤)
وجماعة سرقسطة من (الجمهور)^(٥) فيها من عباد الله .

أطّال الله بقاء الأجل ، الرفيع التدر والحمل^(٦) لحرم الإسلام
يمنعه (١٥٩) () من كرب عظيم على المسلمين يزكيه عنهم ويدفعه .

(كتة) ابنا أيدل الله بنتواه ، ووفقاً لاشتاء دار حستاه بمحاجهة عداء ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان^(٧) ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
وأندھمت ضراؤها ، فتحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل العزا (وعظم)
الخطب ، وأظلم الملاك والعتاب ، فيا عواناه ثم ياغوناه الى الله دعوة () (تن

* صفحه ٤٨٩ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) مامل الأدلس ابلي بن يوسف من قافيين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض المصوّس : « ابن رذمير » و « ابن رذ دمير » وهي صيغة أقرب
إلى الصحة ، لأنّ الصيغة الأصلية لهذا الاسم Radimir وهو من أسماء الجرماني
وقد حرّفه الإسبان إلى Ramir ، فاصنعة البربرية على هذا أقرب إ ، الأصل الجرماني
من الصيغة الإسبانية . والمراد بـ ابن « رذ دمير » هنا التونسي الأول ملك أردون وليون
وقتاله اللقب « بالقاتل » El Batallador .

(٣) أي « وا-تولى عليها » مما يدل على أنّ هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد
في يد الصارى سنة ١٠٢٥هـ .

(٤) ليست لدينا أي معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضي البلد ، مما يدل
أنّ على قاضي البلد كان لا يزال متبرأ رئيس جماعتها كما كان الحال في المدن الاندلسية .

(٥) في أصل : « الأجل » .

(٦) هنا بكلمة تاقصنة في معنى « حماية » .

(٧) يائش في أصل ، الكلمة التاقصنة في معنى : « ودرعا » .

(٨) لم يحدد لنا الكتاب السنة التي كتب فيها ، والثالث أنه نصر بن سبق
— ٥٢٣هـ ، لأن الرد عليه تاريخه سنة ٥٢٣هـ .

دعاه^(١) وأله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائـ، الجليل
الكرم والموانـ، ويا الله ! يا إسلام ! لقد اتهـ حماه ، وفضـت عراه ! وبلغ
المأمولـ من بيضـته عـداه ، ويا حسرـة على حـضرة قد أشـفت على شـفـى الـهـلاـكـ !
طالـا عمرـت بالـإيمـان واـزـدـهـت باـقـائـة الصـلـوات وتـلـاؤـة القرـآن ، تـرـجـع مـرـاتـع
لـلـصـلـبـان وـمـشـاهـد ذـيـمة لـعـبـدة الأـوـثـانـ . ويـا ويـلاـهـ عـلـى مـسـجـد جـامـعـها المـكـرمـ !
وـقـدـ كـانـ مـأـنـوسـاـ بـتـلـاؤـة القرـآنـ الـعـظـيمـ ، تـطـوـهـ الـكـفـرـ الـفـاسـقـ بـذـمـيمـ أـفـادـهـ ،
وـبـئـمـلوـنـ أـنـ يـدـنـسـوـهـ بـقـبـيـحـ آـنـامـهـ ، وـيـعـرـوـهـ بـعـبـادـةـ أـصـنـامـهـ ، وـيـتـخـذـوهـ
معـاطـنـ لـخـازـيرـهاـ وـمـوـاطـنـ خـمـارـاتـهاـ وـمـوـاخـيرـهاـ^(٢) . ثمـ يـاـ حـسـرـةـ اـعـلـىـ نـسـوةـ
مـكـنـوـنـاتـ عـذـارـىـ ، يـمـدـنـ فيـ أـوـنـاقـ الـأـسـارـىـ ، وـعـلـىـ رـجـالـ أـصـبـحـوـ حـيـارـىـ
مـلـ هـمـ سـكـارـىـ وـمـاـ هـمـ بـسـكـارـىـ ، وـلـكـنـ الـكـرـبـ الـذـىـ دـهـمـ شـدـيدـ
وـالـضـرـ (٥٩. بـ) الـذـىـ مـسـهـمـ عـظـيمـ جـهـيدـ ، مـنـ حـذـرـهـمـ عـلـىـ بـنـيـاتـ —ـ كـنـ مـنـ السـترـ
نـجـيـارـ الـوـجـوهـ^(٣) —ـ أـنـ يـرـواـ فـيـهـنـ السـوـهـ وـالـمـكـرـوـهـ ، وـقـدـ كـنـ لـاـ يـدـونـ لـلـنـظـارـ ،
فـلـآـنـ حـانـ أـنـ يـبـرـزـنـ إـلـىـ الـكـفـارـ ، وـعـلـىـ صـيـدـيـةـ أـطـهـالـ قـدـ كـلـاـ نـشـبـواـ
فـيـ حـجـورـ الـإـيمـانـ ؛ يـصـيـرـوـنـ فـيـ عـبـدـ الـأـوـثـانـ أـهـلـ الـكـفـرـ وـأـصـحـابـ الشـيـطـانـ .
فـاـ ظـنـكـ أـيـهاـ الـأـمـيرـ^(٤) بـمـنـ يـلـوـدـ بـهـ بـعـدـ اللهـ الـجـهـوـرـ بـأـمـةـ هـيـ وـقـاـيدـ
هـذـهـ الـعـظـامـ الـفـادـحةـ وـالـنـوـائبـ الـكـلـلـةـ ؟ـ هـوـ الـمـطـالـبـ بـدـمـائـهـ إـذـ أـسـلـهـ

(١) كـذاـ فـيـ الـأـصـلـ ، وـالـنـاـبـ أـنـ صـحـةـ الـفـنـاـ الـأـقـسـ :ـ «ـ مـؤـمنـ»ـ .

(٢) هـذـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ مـسـجـدـ سـرـقـظـ الـجـامـعـ كـانـ قـدـ تـمـ تـحـوـيـلـهـ إـلـىـ كـنـيـسـةـ قـبـلـ تـارـيخـ
لـخـطـابـ ؛ـ أـىـ قـبـلـ مـنـ ٥٢٣ـ هـ .ـ مـاـ يـذـلـ عـلـىـ أـنـ التـوـبـوـ القـتـلـ لـمـ يـكـدـ يـدـخـلـ الـبـلـدـ
جـهـيـ خـافـتـ الشـرـ وـطـائـيـ كـانـ قـدـ طـاهـيـ السـلـمـيـنـ عـلـيـهـ .ـ

(٣) كـذاـ فـيـ الـأـصـلـ ، وـأـنـ صـيـغـهـ :ـ «ـ تـجـيـيـاتـ»ـ أـوـ «ـ مـخـدـراتـ»ـ .

(٤) هـنـاـ يـيدـأـ الـجـزـءـ الـذـيـ نـمـنـ الـخـطـابـ :ـ جـزـءـ مـهـجـةـ الـرـاـبـطـينـ وـلـوـهـمـ وـتـحـمـيـلـهـمـ
مـسـتـوـيـةـ كـلـ مـاـ يـصـيـدـ .ـ إـلـاـ سـمـيـعـ فـيـ إـنـدـلـسـ مـنـ الـصـيـبـ .ـ وـقـدـ كـانـ الـأـنـدـلـسـيـنـ عـلـىـ الـرـاـبـطـينـ
جـرـأـهـ بـاشـتـ حـدـ الـأـهـمـةـ فـكـيـرـهـ مـنـ إـذـ خـيـانـ .ـ وـوـاـتـحـهـ أـنـ الـأـنـدـلـسـيـنـ لـمـ يـكـنـواـ
يـخـتـرـمـوـنـ الـرـاـبـطـيـنـ .ـ بـلـ كـانـوـ إـيـكـراـهـوـهـمـ وـلـمـ يـكـلـوـنـوـاـ يـتـوـبـوـهـ وـلـيـهـمـ فـيـ طـلـبـ الـعـوـنـ
إـلـاـ نـجـتـ ضـنـطـ الـمـاجـةـ .ـ

في آخر ذمامها ، وَتَرَكَهَا أَغْرِاصًا لِأَعْدَانِهَا ، حِينَ أَحْجَمَ عَنْ لِقَائِهَا^(١) ، فَلَيَّ اللَّهُ بِكَ الْمُشْتَكِي ثُمَّ إِلَى رَسُولِهِ الْمُصْطَفِي ثُمَّ إِلَى وَلِيِّ عَهْدِهِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُرْتَضِي ، حِينَ ابْتَعْثَكَ بِأَجْنَادِهِ وَأَمْدَكَ بِالْجَمِيعِ الْفَتَنِ مِنْ أَعْدَادِهِ نَادِيَّا لَكَ إِلَى مَقَارِعَةِ الْمُدُورِ الْمَاحِصِرِ لِهَا وَجْهَادِهِ ، وَالذِّبْعَ عَنْ أُولَيَّاهُ الْمُعْتَصِمِينَ بِجَبَلِ طَاعَتِهِ وَالْمُتَجَمِّلِينَ السَّبْعَةِ الْأَشْهَرِ الشَّدَائِدِ الْمَاهِيَّةِ فِي جَنَبِ مَوَالِيَّهِ وَمَشَايِعِهِ ، مِنْ أُمَّةٍ قَدْ نَكَبَهُمْ أَلْمَ الْجُرُوعِ وَلَعْنَ الْمَدِي بِهِمْ مِنَ الْفَرَارِ وَجِيمِ ، قَدْبَرِ ٢٤ الْمُحَصَّارِ وَقَدْمَتْ عَنْ نَصْرِهِمْ لِأَنْصَارِ ، فَتَرَى الْأَطْفَالُ بَلِ الرِّجَالِ جُوَاهِرَ عَامِجِرَوْنَ ، يَلْوَذُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِسُنْنَتِهِنَّ ، وَيَسْتَغْفِلُونَ ، وَيَسْتَعْنُونَ مَقْدِمَكَ بِإِنْ يَتَضَرَّعُونَ ، حَتَّى كَأْنَكَ قَلْتَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ ! وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ وَصَلَتْ وَصْلَتِ اللَّهِ بِرَبِّكَ بِتَقْرَاءِ عَلَى مَقْرَبَةِ هَذِهِ الْحَضْرَةِ ، وَنَحْنُ (١٦٠) نَأْمَلُ مِنْكَ بِحَوْلِ اللَّهِ أَسْبَابَ النَّصْرَةِ بِتِلْكَ الْعَسَاكِرِ الَّتِي أَفَرَّ اللَّهُ بِهَا وَسَرَّ التَّفَوُسَ زَهَوْهَا ، فَسَرَعَنَّ مَا أَنْتَنِيَتِ وَمَا أَنْتَيَتِ ! وَارْعَوْيَتِ وَمَا أَدَنَيْتِ أَخَيَّاً عَنِ الْلَّاقَاءِ نَأْكُسَهَا عَلَى عَقْبِكِ عنِ الْأَعْدَاءِ ، فَإِنَّا أَوْلَيْنَا غَنَاءً بَلْ أَوْلَيْتَنَا بِلَاءً وَعَلَى الدَّاءِ دَاءٌ بَلْ أَدْوَاءٌ ، وَتَنَاهَتْ بَنَا الْحَالُ جَهْدًا وَالْكَوَافِرُ بَلْ أَذَلَّتِ الْاسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ وَاجْتَرَحَتْ فَصِيحةَ الدِّينِ وَالدِّينِ !

فِيَّ اللَّهِ وَيَا الْلَّا سَلَامُ الْمُدَاهَتْضَمُ حَرْمَهُ وَجَهَهُ أَشَدُ الْاَهْتَضَمَاً إِذْ أَحْجَسْتَ أَنْصَارَهُ عَنْ إِعْزَازِهِ أَفْبَحَ الْاَحْجَامَ ، وَنَكَبْتَهُ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِ وَهُوَ فِي فَتَاهَةِ قَلِيلَةٍ وَأَمَةٍ رَذِيلَةٍ ، وَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ يَسْتَهْزِرُ بِالصَّلِيبَانِ وَالْأَصْنَامِ ، وَأَنْتُمْ سَتَنْصُرُونَ بِشَمَائِرِ الْاسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْمَلِيَا وَيَدِهِ الطَّوْلِي ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفْلِي ، وَإِذْ مِنْ وَهْنِ الْأَيْمَانِ وَأَشَدُ الضَّعْفِ الْفَرَارُ عَنِ الْفَضْعِ ، فَكَيْفَ عَنْ أَقْلَمِ النَّصِيفِ^(١) ؟ فَهَا^(٢) قَبِحُ مِنْ رَضِيَّ بِالصَّفَارِ وَسِيمِ^(٣) خَطْطَةِ

(١) هَذَا يَدْسِي أَهْلَ سُرْقَطَةِ عَلَى الرَّابِطِينَ تَهْمَةً لِأَسَاسِهَا : تَهْمَةُ الْاَحْجَامِ عَنِ الْلَّاقَاءِ الْمَعَارِيِّ ، وَقَدْ أَبْيَتَنَا فِي الْمَقَالِ أَنَّ الرَّابِطِينَ يَذَلُّونَ فِي سَبِيلِ الْاسْلَامِ الْأَنْدَلُسِيِّ مَا لَمْ يَيْذَلْهُ غَيْرُهُ ، وَقَدْ كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِ الْمُوحَدِينَ إِذْ ذَلَّكَ عَلَى أَشَدِهِمْ ، وَقَوْدَمْ عَنْ عَوْنَ سَرْسَطَةِ إِنْهَا كَانَ سَبِيَّهُ سُوءٌ خَلَرُ ، فَهُمْ ، لَا الْاَحْجَامُ عَنِ الْلَّاقَاءِ الْمَعَارِيِّ . وَسَرِيَّ مِنْ بَقِيَّةِ الْخَطَابِ ، أَنَّهُمْ حَارَنُوا إِنْهَاذَ الْبَلدِ رَغْمَ ذَلِكَ .

(٢) وَيَعْلَمُ أَعْلَمُنَا هَذِهِ الْاِسْتَارَةُ عَلَى تَحْدِيدِ تَارِيخِ هَذَا الْخَطَابِ .

(٣) كَذَا فِي الْأَمْلِ ، وَالنَّا تَبْ أَنْ سِيمَهَا : « فِي » .

(٤) فِي الْأَمْلِ « وَسِيمَا » وَهِيَ بَلَطَةٌ وَقَعَتْ مِنْهَا النَّا تَبْخَ تَيْبَعَةُ الْأَمْلِ ، وَهِيَ تَوْبَدُ مَا أَشْرَنَا إِيَّهُ مِنْ صَنْطَ الْأَنْدَلُسِيِّنَ عَلَى أَوْلَى السَّكَلَاتِ .

الحسف ، فـا هـذا الجـنـون والـفـزع ؟ وـما هـذا الـمـلـعـونـ والمـلـزـع ؟ بـلـ ما هـذا الـعـارـ والمـضـبـع ؟ أـتـحـسـبـونـ (١) يـامـعـشـرـ المـراـبـطـينـ ، وـإـخـوـاتـناـ فـيـ ذاتـ اللهـ المؤـمنـينـ ، إـذـ سـبـقـ عـلـىـ سـرـقـسـطـةـ الـقـدـرـ بـهـاـ يـتـوقـعـ مـنـهـ الـمـكـرـ وـالـحـذـرـ ، أـنـكـ تـبـلـعـونـ بـعـدـهـاـ رـيفـاـ ، وـتـجـدـونـ فـيـ سـاـيـرـ بـلـادـ الـأـنـدـاسـ — عـصـمـهاـ اللهـ — مـسـلـكـاـ مـنـ النـجـاةـ أوـ طـرـيقـاـ ؟ كـلـاـ ! وـالـلـهـ لـيـسـوـ مـنـكـ الـكـنـارـ عـنـهـ جـلـاهـ وـفـرـارـاـ (٢) بـ(٦٠ـ بـ) ١ـ وـلـيـخـرـجـنـكـ مـنـهـ دـارـاـ ! فـسـرـقـسـطـةـ حـرـسـهـاـ اللـهـ هـيـ السـدـ الـذـيـ إـنـ فـتـقـ فـقـتـ بـعـدـهـ أـسـدـاـ ، وـالـبـلـدـ الـذـيـ إـنـ اـسـتـبـيـحـ لـأـعـدـاءـ اللـهـ اـسـتـبـيـحـ لـهـ أـقـطـارـ وـبـلـادـ !

فـالـآنـ (٣) أـيـهاـ الـأـمـيرـ الـأـجـلـ ! هـذـاـ أـبـوـابـ الـجـنـةـ قـدـ فـتـحـتـ ، وـأـعـلـامـ الـفـتحـ قـدـ طـلـمـتـ ، فـالـنـسـيـةـ وـلـاـ الـدـنـيـهـ ! وـالـنـارـ وـلـاـ الـعـارـ ! فـأـيـنـ النـفـوسـ الـأـبـيـةـ ؟ وـأـيـنـ الـأـنـفـةـ وـالـحـمـيـةـ ؟ وـأـيـنـ الـهـمـ الـمـرـابـطـيـةـ (٤) ، فـلـتـقـدـحـ عـنـ زـنـادـهـاـ بـاـنـتـضـاءـ حـدـهـاـ ، وـأـمـتـطـاءـ جـدـهـاـ وـاجـتـهـادـهـاـ ، وـمـلـانـةـ أـعـدـاءـ اللـهـ وـجـهـادـهـاـ ، فـاـنـ حـزـبـ اللـهـ هـمـ الـغـالـبـوـنـ ، وـقـدـ ضـمـنـ تـعـالـىـ لـمـ يـمـاـهـدـ فـيـ سـبـيلـهـ أـنـ يـنـصـرـهـ ، وـلـمـ جـائـىـ عنـ دـيـنـهـ أـنـ يـؤـيـدـهـ وـيـظـهـرـهـ ، فـاـ هـذـاـ أـيـهاـ الـأـمـيرـ الـأـجـلـ ؟ أـلـاـ تـرـغـبـ فـيـ رـضـوـانـهـ وـاشـتـرـاءـ جـنـاتـهـ بـمـقـارـعـةـ حـزـبـ شـيـطـنـهـ ، وـالـدـافـعـ عـنـ أـهـلـ إـيمـانـهـ ؟ فـأـسـتـمـنـ بـالـلـهـ عـلـىـ عـدـوـهـ وـحـرـبـهـ ، وـأـعـدـ بـبـصـيرـةـ فـيـ ذاتـ اللـهـ إـلـىـ إـخـوانـ الشـيـطـانـ وـحـزـبـهـ ، فـأـنـهـمـ أـغـرـاضـ لـلـنـيـاـنـ وـالـحـتـوـفـ ، وـنـهـزـ لـلـرـمـاحـ وـالـسـيـوـفـ ، وـلـاـ تـرـضـيـ بـخـلـةـ الـعـارـ ، وـسـوـءـ الـذـكـرـ وـالـصـيـتـ فـيـ جـيـعـ الـأـمـصـارـ ، وـلـاـ نـكـنـ كـنـ قـيـلـ فـيـهـ :
يـجـمـعـ الـجـيـشـ ذـاـ الـأـلـوـفـ وـيـقـزـوـ لـاـ يـرـزاـ مـنـ الـدـوـ فـتـيـلاـ
وـلـنـ يـسـمـعـكـ عـنـدـ اللـهـ وـلـاـ عـنـدـ مـؤـمـنـ عـذـرـ فـيـ التـأـخـرـ وـالـأـرـعـواـ ،
عـنـ مـنـاجـةـ الـكـفـارـ وـالـأـعـدـاءـ ، وـكـتـابـنـاـ هـذـاـ أـيـهاـ الـأـمـيرـ اـعـتـذـارـتـهـ قـوـمـ لـنـاـ بـهـ الـسـجـةـ

(١) هنا يـلـجـأـ أـهـلـ سـرـقـسـطـةـ إـلـىـ تـهـديـهـ الـرـابـطـيـنـ وـتـخـوـيـفـهـمـ ، وـهـيـ خطـوـةـ بـدـ الـلـوـمـ وـالـأـنـيـبـ .

(٢) هنا يـلـجـأـ سـرـقـسـطـيـوـنـ إـلـىـ الرـجـاءـ وـالـاستـهـافـ . وـوـاـضـحـ أـنـ كـاتـبـ الـمـاطـبـ كـانـ دـحـلـاـ مـاهـراـ لـبـقـاـ ، يـرـفـ كـيـفـ يـجـمـعـ فـيـ كـتـابـهـ كـلـ مـاعـسـاهـ أـنـ يـسـتـهـشـ الـمـسـهـ وـيـشـرـدـ الـنـفـوسـ .

(٣) لاـ حـظـ هـذـهـ الـبـارـةـ وـمـاـ بـدـهـاـ .

في جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر واللحاد .
ونحن مؤمنون بل موقوفن من إيجابكم إلى نصرتنا ، وإعذاذكم إلى الدفاع
عن حضرتنا ، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا ، إلى استنقاذنا من أيدي
أعدائنا ، فدفاعكم إنما هو في ذات الله وعنه كلمة (الدين وربه) ^(١) ، وشاماتك
عن الإسلام وحزبه ، فذلك الفيخر الأنبيل لك في الأخرى والدنيا ،
ومورث لك عند الله المزلاة العليا . فكم تحيي من أمم ، وتبجي من كروب وغم !

وإن تسكن منك الأخرى ، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك ،
فأقبل بمسكرك على مقرية من سرقة — عصمتها الله — ليخرج الجميع عنها ،
وبيراً إلى العدو وقد الله منها ^(٢) . ولا تتأخر — كيفاً كان — طرفة عين ،
فالمرأ أضيق ^(٣) وبالحال أزمه ، فعد ^(٤) بنا ^(٥) عن المطلب والتسويف ، قبل وقوع
المكر ووالخوف ، والإفان المطلوب عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون
عن صبيتنا وأطفالنا ، لاحجاجكم عن أعدائنا ^(٦) وتنبظكم عن إيجابة ندائنا ،
وهذه حال نعيذك فيها الأمير الأجل عنها ، فإنها ^(٧) تحيي لك من العار مالم تحمله
أحداً ، وتورثك وبجميع المرابطين الخزي أبداً ، فالله الله ! انتقهوا وأيدوا
دينه (٦١ ب) وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرمين
والديار . قال الله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار
وليجدوا فيكم غلظة ... الآية ، وقد برئتم بالسلام للإعداء من نصر الإسلام ،
وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمة يتزل (المعنى) الحفي ، وبغتتنا
الله عنكم ، وهو الحميد الغني !

(١) أمنت هذه البارزة ليستقيم السياق .

(٢) هذه إثارة مهمة ، فقد كان الخروج من المدينة ياخ لمن أراد من المسلمين ،
من هؤلاء كانوا يخشون أن يتخطفهم الموسوس وجده النصري في الطريق . . . وقد حدث
ذلك كثيرةً وممّا يرجون أن يقترب من البلد حيث سراجلي ليخرجوا من البلد ويسروا
إلى بلاد الإسلام في جهاد .

(٣) في الأصل : فضينا .

(٤) في الأصل : إعدادتنا .

ومن متحملي كتابنا هذا، ومم ثقانتنا، تقد من كتبه حالتنا على مالم يفهم منه الخطاب ولا استوعبه الاطناب بعنه^(١) وله ألم الطول في الاصفاه إليهم، وأقعدهما مالديهم إبن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢).

الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقة طة السابق ، وعده أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبي بكر ابن سير يصف له لقاءه مع النصارى عند « القلعة » ويعذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذي بيته في مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسى المعروف مروان بن أبي الحصال أعظم التذرين الأندلسين في ذلك الحين ، وواحد من انتهائهم زعامة التراثى في تاريخ الأدب الأندلسى كلها ، وقد وصفه المقرئ في « نفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب مراج الأدب » ، صنفه على متزع كتاب « النواودر » لأبي على (القالى) وزهر الأدب للحصرى (التبرانى) (انظر ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤) ووصفه مرتين « بالوزير » مما يدل على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس في عهدي « أمراء الطوائف » والمرابطين ، وذكره « ابن حزم » في « رسالته » مفاخرآ المشارقة برسالة (المقرى ج ٢ ص ١٣٠) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم تشر إليها المراجع ، وهي أن ابن أبي الحصال ، كان في ديوان الإنشاء المرابطي ، وكان يقيم في مراكش في بلاط « على بن يوسف » ولم يشر واحد من ترجموا للرجل إلى ذلك .

(١) هنا كلمة لم أستطع قراءتها ، وربما هكذا : عنه . والنائب أن الناسخ أسلقوها هنا مجازة في معنى : ورجأنا أن يتفضل الأمير علينا عنه .

(٢) هنا يقف الخطاب ، وكان يودنا لو عبرنا من حلة « متجلو » الخطاب وصف حوال أهل سرقسطة في ذلك الحين بهن من التفصيل .

وصدور الكتاب عن «أمير المسلمين» نفسه يدل على أنه كان مشرفاً إشرافاً مباشرأً على أمير الأندلس في ذلك الحين، وأن الكتاب التي كانت تصل إلى أخيه أبي الطاهر تميم مamel الأندلس كانت تحول إلى رئيس الدولة المرابطية لينظر فيها بنفسه.

ونص الكتاب يدل على اهتمام «علي بن يوسف» بشئون الأندلس رغم الظروف العصيبة التي كانت تحيط به وبدولته في ذلك الحين. وتلك حقيقة هامة تؤيد ما قلناه في هذا الأمير المرابطي العظيم، وتدحض ما ذهب إليه دوزي وسيمونيت وكوديرا ومنتذد يدال في حقه، وتؤيد كذلك ما قررناه من أن المرابطين، كالاتراك العثمانيين، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى هي الدفاع عن حرمة الإسلام.

أما «زيمة المرابطين» وقادهم في هذه الجبهة الشرقية محمد بن أبي بكر بن سير عند «القلعة» أو «القلاعة» — وهي لغة أندلسية في نطاق هذا اللفظ — فحقيقة جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتي تليها، ولا بد أنها كانت إحدى الواقع الكثيرة التي وقعت بين «المرابطين» والنصارى في طول الأندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة، إذ أن المرابطين لم يكفوا عن محاولة استعادة سرقسطة، وكانت لا يتوقفون عاماً واحداً عن إرسال البعوث إلى ناحيتها، وأليس لدينا مع الأسف الشديد أي تفاصيل دقيقة عن هذه الاشتباكات، لأن شبه الجزيرة كلها تحول إلى ميدان حرب رهيب يقتل المرابطين مع النصارى في كل ناحية من نواحيه، وكانت أعداد المرابطين كبيرة نواماً ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب انتصار أمور دولتهم في إفريقية وإجلاب الأندلسيين المسلمين عليهم، فكانوا يرتدون عن المنهاء في كثير من الأحيان. وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لإنقاذ الأندلس، وتحدد لنا تاريخها وتصنفها لنا وصفاً لا يأس به. ولم يسع المرابطون بياتهم في الأندلس إلا في سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر على بن يوسف بنفسه عبره الرابع الأخير لكي يخلاف أمر مملكته الأندلسية بعد أن أشرف على الضياع.

* رسالة *

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل
أبي محمد ابن أبي بكر هزيمة «القلعة» رحهما الله^(١)

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن المدى والرشد
سعيل ، من حضرة مراكب حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة
ثلاث وعشرين وخمسمائة . وقبله وافق^(٢) كتابك تذكر فيه المية التي كانت
للعدو — دمره الله — نليلك في اليوم الذي واجهتموه فيه^(٣) ، بعد أن كان لكم
صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر الأمور^(٤) أبدأ أو كد وأهم : والعواقب
هي التي تعمد أو تندم ، وإذا حست خواتيم الأعمال فالصنع أهنى وأتم ،
وإن لـ ان العذر بذلك لحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيق لطلع بصير :
تواقفهم مع عدوكم ، وأنتم أولون منه عدة وأكثر (١٧٢) جماعاً ، وأحرى
أن تكونوا أشد عن حربكم منعاً ، وأقوى دونه دنعاً ، فثبتت وزللت ، وجد
ونكلتم ، وشد عقد عزيته وحللت ، وكنتم في تلك الواقعة قرة عين الحاسد
وشناعة العدو الراصد ، وقد كانت نسبة^(٥) تو likم بين يديه بشيعة^(٦)
هائلة ، ودعامتكم لو لا اثناؤه عنكم مائة ، فشغله عنكم من غررته
من الرَّجُل^(٧) الذي أسلتموه للقتل ، وقررتهم ، ونصبتم لهم دريضة للرماح
ثم طرتم ، ولو لا مكان من أوردتهم من المسلمين ولم تصدرروه ، وخذلتكم

* صحة ٧١ بخط ط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الاهتمام الأثير من النس : كتاب الكتاب الأخضر ... سواند ابن أبي الصنف [رح] نة الله عليه . صح .

(٢) وفي الأصل : وافا .

. (٣) إشارة إلى هزيمة «القلعة» التي ذكرناها .

(٤) وردت الكلمة «آخر» في آخر السطر بتور أرها ، وقد أمنت الكلمة «الأمور»
ليستقيم السياق .

(٥) كذلك في الأصل ، ولعل سببها : « قصة » .

(٦) كذلك في الأصل .

(٧) هذه الإشارة هامة . إذ من الثابت أن المراطين تخلوا عن المطوعة وتركوم
يسلون منبران العدو وخدم في بعض الواقع .

من المجاهدين ولم تتصروه ، لأنكم دون ذلك الرماح جنحكم ووقاكم ، وأصيحت بها ظهوركم وأفلاجكم ، ما قبلكم الله بما أتيتم أهله ، فأنتم أشجع الناس ألقا ، وظاهراؤا ، وأجيئهم وجوهاً ونحوها ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولا عندكم في الرشد رؤية ولا نديمة ، ففي أي وقت تصلحون ؟ ولأى شيء بعد ذلك تصلحون ^(١) ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دفع بفضله الأم الأكبر ، وأجري بأكثر السلامة القدر : ما كشفوا بعد أغطية أبصاركم ، وقصروا حل اختاركم ، والبسوا منه ^(٢) جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إليكم جزاء توافقه يوماً عصيّاً تلقونه ، فكونوا بعد هذه المنهاة لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف (ب) ٧٢ على أمر جامع ^(٣) ، فانكم لو [خلصت غيبكم] ^(٤) حست سريركم ، واطمأنتم على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلاحدكم ، ولذا ذهب ريحكم ولا أخل ^(٥) جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق العزمات ، واثبتو أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة القيمة .

وقد ذكر أن للعدو درءه الله مدد يأتيه من خلقه ، والله يقطع به ، فلتتبعوا على مسالكه عيوناً نكلاً ، ولتكن آذانكم مصينة لما يطرأ ، فإن كان له مدد كاذب قطعتم به السبيل دون حاقه ، وأقمن الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيه الأبواب ، ويأخذ بأزمانكم إلى الصواب ، إنه الحميد الجيد ، لا إله غيره .

(١) هذه الزيارة تذكرنا .

(٢) في المأمور : مثنا ، مصح .

(٣) هذه الاشارة تدل على أنه حدث في جيش المسلمين شقيق قبل هذه الواقعة أو اثناءها ، والنال أن يكون هذا الشقيق قد وقع بين الأئميين والرافعين ، وهذه ظاهرة تتكرر كثيراً في تاريخ الجماد في الاندیس ، وقد ظهرت بشكل واضح في عبور المسلمين عن الاستيلاء على حصن « ليبيط » وتناثر في أسوأ صورها في هرب المسلمين الكبير يوم « المقابل » في عصر الموحدين .

(٤) ياضن في الأصل ، وقد أثبتت هذه المارة ليستقيم النباق ..

(٥) في الأصل : ولا أخل .

الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن علي بن يوسف بعد كتابة السابق بأربعة أيام فحسب ، وهو يتعلّق بهزيمة «الفلعة» التي دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسف أن الخطاب الذي تشير إليه ، وهو الذي يصف فيه أبو الطاهر تهيم ما جرى في يوم «الملمعة» قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائد المرابطي أقر بالهزيمة وحاول تبريرها في خطابه إلى أميره ، ولكن علي بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره وثبت إليه بلوغه في أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن المهزومة دارت عليها في نصفه الثاني ، وهذه ظاهرة كثيرة التواجد في موقع المرابطين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المرابطين كانوا يهجمون بحماس شديد فيرون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريراً كاملاً فقد كان من الطبيعي أن تكون نسبة قتلامهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صفوفهم تتداخل ولا يستطيعون الثبات في نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها تتابع هامة فيها . يتصل بوقف علي بن يوسف من الأندلس وادتمامه بمصره في ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفيما يتصل كذلك بأسلوب التخاطب الذي كان يجري عليه ديوان الأنشاء المرابطي في مخاطبة القواد . وكاتب الخطاب هو أبو الحصال ، ونلاحظ أنه باللغة في إهانة المرابطين على عهد الأندلسيين ، في الكتابة عنهم ، وعند الواحد المراكشي خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل بلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب على بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن «عليها» لم يكن يقرأ هذه التكبي قبل إنسانها . وطبعي كذلك أنه لم يكن ليفهم هذه الكلف اللغوي الذي كان كتاب الأندلس في ذلك العصر يسرفون فيه .

رسالة

وله إلى المذكورين^(١) بجاوبا لهم بهزيمة
ابن رذير إياهم في «القلعة»^(٢)

كتابنا أبقاك الله وأكرمك بتقواه وكسفك بعصمته وجعلكم في حماه
وأسبغ عليكم عوارفه ونعمه ، من حضرة مراكش حرستها الله في الحادى عشر
من شعبان المكرم من سنة ثلاثة وعشرين وخمسينه ، غب ما وافانا
كتابكم الأثير ، مضمونا وصف اليوم الذى جرت به خزية المقادير ، فاستعر ضياءه
وتقرر لدينا جميع ما حواه^(٣) ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة
شأنه علينا ، لكن لا يخرج عن القضاة وحكمه ، ولا يحيى عن القدر وحتمه ،
ولن يرد حول محظى ماسبق في علمه ، وما ألونا -- وهو عز وجهه أعدل
الشاهدين -- جداً وعزماً وكدها لاعلاء كلمة الإسلام ، وحزماً ببذل الأموال
وتغیر الرجال واعتياض الأسلحة والأفراس ، والجريح بن الإيماش والإيناس
في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخييل فيها السداد
وبلوغ مد () لما جهاد في كل نحو والاجتهد لو كان العوز موجوداً
ولهم يكن التعذير () صير^(٤) حاغراً عتيداً ، والله يخزى كل خائن مائن
باستخراجه تعالى داين جراه ، ويرديه بُرد مضمصره ورداه ، ويوشك مقارضته
وإرداه بمحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين
لأسرعنا بذلك مبادرين^(٥) ولنا ثنانا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

* منصة ٧٣ بـ مختلط ٤٩٦.

(١) أهل سرقطة الذين كتبوا اليه (الوثيقة الثانية) .

(٢) كذلك في الأصل ، وهي صيغة في «القلعة» . و «القلعة» على مقربة من عن ناحية .

(٣) في الأصل : نواه .

(٤) غرم في المعلم .

بنا عن معاجلة نصركم تراح ولا توان . وقد جددنا الآن أحثُ نظر ونحو
زدفه بما يكون عليكم أتم^(١) وأرد وأسرع متضرر ، فلتهدا ضلوعكم
ويسكن مروعكم ، فالنا والله يشهد لهم سوى الزياد عنكم والمداع ، والانحراف ،
لذلك والاستجاع ، والاجتهد ، والتوفر عليه يأتم الانطلاق ،
والله عز وجل المumin المنجد ، فلم يزل يعتصد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .



(١) في الأصل : آم

٩٢ / ٧٠٦٤	رقم الإيداع
٩٧٧ - ٥٣٦٥ - ٠٢ - ٣	الت رقم الدولي

الله نجد سرور في عصام الراطيين

برنفال

سبي